التعايش السلميّ ومقاصده

"مجتمع المدينة المنورة نموذجًا"

إعــداد

عادل عبدالله صبره هندي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد

بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

البريد الجامعي: AdelHendy133@azhar.edu.eg

١٤٤٤هـ = ٢٠٢٢م

التعايش السلمي ومقاصده "مجتمع المدينة المنورة نموذجًا"

عادل عبدالله صبره هندي

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المساعد بقسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية، مصر.

البريد الجامعي: AdelHendy133@azhar.edu.eg

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان مشروعية وفرضية التعايش السلمي بين الناس، فضلا عن بيان المقاصد المنشودة للتعايش كما صاغها النبي صلى الله عليه وسلّم، كما يهدف إلى استكشاف أهم التحديات التي تواجه تحقيق التعايش السلميّ وكيف يتعامل معها أبناء المجتمع، مسترشدًا في ذلك بوثيقة المدينة المنورة، والتي تُعدّ –بحق– نموذجًا تطبيقيًا للوثائق الإنسانية اللازمة لتأمين حياة الناس ومعايشهم، وقد اتبع الباحث المنهج الاستقرائي والاسترادادي التاريخي، ومن خلالهما يستقرأ الباحث أهم أحداث السيرة وخاصة في الفترة المدنية، ثم يحلل تلك الأحداث وما يمكن الاستفادة منه للواقع المعاصر، وقد خلُص الباحث إلى عدد من النتائج، من أهمها: "أنَّ التعايش هو الحل الأمثل لتجنب الصراعات الدينية والفكرية، بيان عظَم الرسالة الإسلامية في تحقيق العيش المشترك وفقًا لقانون الاندماج الإنساني لا الذوبان القاتل للاستقلالية الإسلامية، إظهار كمال دولة المدينة الناشئة في طبيعتها الإنسانية، ومرجعيتها الواقعية، وركائزها المدنية، والتعايش السلمي هو الحل الأمثل لتجنب الصراعات باختلاف أنواعها، وأيضا من أصول التعايش السلمي: الإيمان بالتعددية واحتفاظ الناس بحقوقهم، وكذلك أن حقيقة التعايش السلمي في إيجاد طرق سلمية للعلاقة بين الأفراد المختلفين، وأن التعايش مقبول مع المُسَالِمِين، أما المحتل المقاتل فلا تعايش معه؛ فقد قَتَلَ وبغى واستبدّ وتغطرس على الضعفاء والمستضعفين، ورسالة الإسلام تأبى الودّ والتعايش مع المجرمين المعتدين، ومما انتهى

إليه البحث أن التعايش قيمة إسلامية إنسانية أسسها القرآن ودعت إليها السنّة النبوية، وشجّعت على تحقيقها بين المسلمين والمسلمين، وبين المسلمين وغيرهم في الوطن الصغير والوطن الإنساني الكبير، ويوصي البحث بتكثيف الدراسات العلمية التي تعمل على استكشاف أوجه الريادة في وثائق الإسلام الأولى –التي حقَّقت التعايش السلميّ بين الناس–، ثم عقد مؤتمرات السلام وتكثيف إشغال الرأي العام بوسائل تحقيق السلم الاجتماعي والأمن المجتمعي، تدريس منهج دراسي لطلاب الجامعات حول القواسم المشتركة بين البشر وآليات بناء الأوطان وتحقيق المواطنة الرشيدة.

الكلمات المفتاحية: التعايش السلمي، العيش المشترك، المُشتركَات الإنسانية، المدينة المنوّرة، دُستور المدينة، وثيقة المدينة، السلام العالميّ.

Peaceful Coexistence and Its Purposes "Madinah Al-Munawwarah Society as a Model"

Adel Abdullah Sabra is an Indian

Assistant Professor, Department of Islamic Culture, College of Islamic Dawa, Al-Azhar University, Egypt.

E-mail: AdelHendy١٣٣@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to clarify the legitimacy and hypothesis of peaceful coexistence among people, as well as clarifying the desired purposes of coexistence as formulated by the Prophet, may God's prayers and peace be upon him. Which is - rightly - an applied model for the humanitarian documents necessary to secure people's lives and livelihoods, The researcher followed the historical inductive and retrospective approach, and through them the researcher extrapolates the most important events of the biography, especially in the civil period, and then analyzes those events and what can be benefited from in the contemporary reality. Religious and intellectual, showing the greatness of the Islamic message in achieving coexistence in accordance with the law of human integration and not the fatal assimilation of Islamic independence, showing the perfection of

the emerging city-state in its human nature, its realistic reference, and its civil pillars, and peaceful coexistence is the ideal solution to avoid conflicts of all kinds, and also one of the principles of coexistence Peaceful: Belief in pluralism and people's preservation of their rights, as well as that the reality of peaceful coexistence lies in finding peaceful ways for the relationship between different individuals, and that coexistence is acceptable with peaceful people, but as for the fighting occupier, there is no coexistence with it; He killed, oppressed, tyrannized, and arrogantly over the weak and oppressed, and the message of Islam rejects friendliness and coexistence with the criminal aggressors, and from what the research concluded is that coexistence is an Islamic human value founded by the Qur'an and called for by the Sunnah of the Prophet, and encouraged to achieve it between Muslims and Muslims, And between Muslims and others in the small homeland and the great human homeland, and the research recommends intensifying scientific studies that work to explore the aspects of pioneering in the first documents of Islam - which achieved peaceful coexistence among people -, then holding peace conferences and intensifying public opinion with the means of achieving social peace and community security, teaching Curriculum for university students on the common

denominators between humans and the mechanisms of building nations and achieving good citizenship.

Keywords: peaceful coexistence, Coexistence, Human commonalities, The enlightened city, The city's constitution, The city's document, World peace.

من نور القرآن الكريم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

﴿سورة الحجرات: آية ١٣﴾

مُقدّمة البحث

أولا : أسباب اختيار الموضوع

ثانيًا : أهداف البحث

ثالثا : تساؤلات البحث

رابعًا : خطة البحث

الحمد لله رب العالمين، أنعم علينا بالإسلام، وجعلنا من أُمّة خير الأنام، وأشهد أن لا إله إلا الله، الداعي إلى السلام والأمان والوئام؛ فقال سبحانه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، نبي الإسلام ورسول السّلام، صلّى الله عليه صلاة ترفع قدرنا وتُعلي شأننا وتُدنينا منه يوم القيامة، فاللهم صلّ على نبينا الفتيّ النقيّ الوليّ الزكيّ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ تحقيق التعايش بين المسلمين وغيرهم صار أمرا حتميًّا وضروريًّا؛ لتحقيق الوحدة والتعاون والتواصل الإيجابي الفعّال، وبناء الأوطان، وأُمّتنا الإسلامية هي أوْلى الأمم بإظهار ملامح هذا التعايش؛ فقد عاشت به زمنًا طويلا، وأسسته توجيهات القرآن الكريم وتطبيقات السنة النبويّة في دولة المدينة المنورة.

ولقد كان تأسيس دولة الإسلام الأولى (المدينة) نتيجة طبيعية لما تعرّض له الرسول الكريم وأصحابه الأطهار في أرض مكة المكرمة في بدايات الدعوة الإسلامية، حينها فكّر الرسول –صلى الله عليه وسلّم– بعد أمر الله له بالخروج أن يهاجر إلى المدينة المنوّرة، وقد رفع له السفير الأول مصعب بن عمير –رضي الله عنه– تقريرًا جامعًا يشرح له الوضع الجغرافي والديموغرافي لطبيعة المدينة وسكّانها، رفع له هذا التقرير في السنة السابقة للهجرة المباركة.

فقرَّر النبي –صلى الله عليه وسلّم– الانطلاق إلى يثرب، مُلبيًا أمر ربه، مستعينًا به، طالبًا نشر دينه في الآفاق، راغبًا في إصلاح دنيا الناس وآخرتهم، وقد كان.... فلقد انطلق النبيّ –عليه الصلاة والسلام– نحو المدينة مهرولا، يطلب الخير للبشرية، ففوجئ الرسول الحبيب بتنوّع عجيب لطبيعة سكّان يثرب، أوس وخزرج، يهود ونصارى، ووثنيون وصابئة... إلى غير ذلك.

إنّه تنوّع إنساني يدعو للتأنّي والتفكّر والتأمّل، تنوّع يدعو للبحث عن وسائل تجميع هؤلاء؛ حتى لا تنفجر قنابل الخلاف والنزاع العرقي والطائفي والقبلي والفكري والسياسي

والديني في أرجاء الدولة الناشئة؛ خاصة مع وجود زعامات منافسة في المدينة، وكثرة الأحقاد والضغائن في الصدور الملتهبة من سياط انتشار الإسلام وتحركاته السريعة نحو العالمين.

ومع كل هذا التنوّع، ومع هذه الحيرة بين خيارات التعارف أو التصارع: كانت الرؤية النبوية المصطفويّة بالعمل على توحيد الصف المجتمعيّ وتحقيق السِّلْم العام بين أبناء المجتمع، فاتخذ الرسول القائد في سبيل ذلك العديد من الإجراءات التشريعية والقانونية، إلا أنّ عددًا من التحديات باتت تطفو على سطح دولة الإسلام، وأضحت تنشد الهدم لا البناء، والفرقة لا التجميع، والتنازع لا التكامل، والتناكر لا التعارف... فإذا كان للتعايش السلمي مقاصد وثمرات، فإن في طريق تحقيقه صخور وتحديات وعقبات، فقد حدثت أحداث ضخمة، صراعات داخلية وعداوات خارجية وضغائن ماكرة. ويالله العجب!! كيف يُواجَه من أراد العيش المشترك بوسائل ملتوية في إشعال نيران الفرقة في رحاب المجتمع؟

وحتى نتعرّف أكثر على طبيعة دولة المدينة المنورة ونشأتها وملامح استقرارها، كانت ورقات هذا البحث الموسوم بـــ "التعايش السلمي ومقاصده.. مجتمع المدينة المنورة نموذجًا" فإنّ النظر في صفحات تاريخ دولة الإسلام يدلّنا على الطريقة المُثلَى نحو تحقيق التعايش السلمي والاندماج المجتمعيّ، كما تحدثنا صفحات تاريخ المدينة المنورة –زمن النبوة– عن الخطوات الأجلّ في مقاومة التحديات الناشئة ضد التعايش السلميّ المنشود.

أولا: أسباب اختيار الموضوع:

ومن أسباب اختيار هذا الموضوع ما يأتي:

١. إظهار الوجه الحضاري للإسلام في قضية السلام العالمي.

٢. التأكيد على سِلميّة هذا الدين وأنه صالح للتطبيق في كل زمان ومكان.

٣. المساهمة في الذّود عن الدين ورد الشبهات الرامية إلى غلوّ الدين وتشدد أبنائه.

٤. محاولة تصحيح المفاهيم المرتبطة بقضية المواطنة والوطن والوطنية؛ حيث ضلّت حولها بعض الأفهام، وتسبّبت في تشويه معالم الدين الصحيح.
٥. تشدّد بعض المنتسبين للدين في ربط الموالاة والبراءة بقضية الوطن.
٦. إزالة الإشكالات الطارئة نتيجة سوء الفهم لأمور الاعتقاد والسلوك في الإسلام.
٧. تلمّس بركة مدارسة السيرة النبوية الشريفة واستلهام الدروس العمليّة منها في تصحيح المسار الفكريّ والسلوكيّ.

ثانيًا: أهداف البحث:

ويهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

- التعرف على أهم المفاهيم المرتبطة بالتعايش السلمي وهدي الإسلام في تحقيقه.
- تربية الذّات المسلمة على قبول المخالِف واحترامه وتقديره كإنسان.
- الترهيب من الولوغ في مستنقعات التكفير والتفسيق والتأثيم والتبديع.
- استشعار المسؤولية تجاه الناشئة بالتربية الإيجابية في التعامل الإنساني.
- تنمية السلوكيات الاجتماعية في حياة الجيل الناشئ؛ بحيث يتعايش سلميًّا مع الآخرين ويحقق التنمية الشاملة للمجتمع وأبنائه.

ثالثا: تساؤلات البحث:

يحاول البحث الإجابة عن تساؤل أساس، وهو: كيف استطاع النبيّ صلى الله عليه وسلّم تحقيق التعايش السلمي في دولة المدينة المنورة مع تعدد أنواع سكان المدينة وقاطنيها؟. كما يتفرّع عن هذا التساؤل عدد من الأسئلة الفرعية، وهي على النحو التالي:

١. ما أهم النصوص الدالة على فرضية التعايش وضرورته؟
٢. كيف أكّد النبي –صلى الله عليه وسلم– عمليًّا فرضية التعايش السلمي؟
٣. هل للتعايش السلمي مقاصد وثمرات محسوسة في الواقع المجتمعي؟
٤. ما أهم التحديات التي تعطّل مسيرة التعايش والتكامل الإنساني المشترك؟

٥. كيف استطاع النبي –عليه الصلاة والسلام– مواجهة الزعامات المنافسة الكارهة لوحدة المجتمع المسلم والإنساني في ذات الوقت؟

٦. ما خصائص مجتمع المدينة المنورة مما أهّله للريادة والزعامة؟

٧. كيف كانت وثيقة المدينة وصحيفتها المشهورة سببًا في تأمين المجتمع الجديد وتحقيق السِّلْم المجتمعي؟

٨. ما سُبُل الإفادة المعاصرة من نموذج وثيقة المدينة المنورة زمن النبوّة؟

رابعًا: خطة البحث

وقد اشتمل البحث إجمالاً على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.. وبيانها تفصيلاً على النحو التالي:

مقدمة: واشتملت على بيان أسباب اختيار الموضوع وأهدافه وتساؤلاته وخطّته.

تمهيد، ويشتمل على نقطتين:

الأولى: تحديد المصطلحات.

الثانية: مجتمع المدينة المنورة عند الهجرة النبويّة.

المبحث الأول: مرتكزات التعايش السلميّ في القرآن والسنّة.

المبحث الثاني: مقاصد التعايش السلميّ المنشودة.

المبحث الثالث: تحديات في طريق التعايش السلميّ وسبل المواجهة.

المبحث الرابع: وثيقة المدينة ودورها في تحقيق التعايش السلميّ.

خاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

وأسألُ الله تعالى أن يوفِّقنا جميعًا لما يحبّه ويرضاه،
وأن يُبارِك في علمائنا ومشايخنا،
ونسأل الله القبول.

تمهيـد

النقطة الأولى:

تحديـــد المصطلحـــات

النقطة الثانية:

مجتمع المدينة المنورة عند الهجرة النبويّة

النقطة الأولى:

تحديد المصطلحات

تكثر المصطلحات الدالة على معنى العيش المشترك والتعايش السلمي بين الناس، غير أنه ولطبيعة البحث فأخص التعريف بالمصطلح الأكثر شهرة، وهو (التعايش السلمي)، ونبين ذلك على النحو التالي:

أولا: تعريف (التعايش) في اللغة

تأتي كلمة (التعايش) من أصل الكلمة (عَيَشَ) والْعَيْنُ وَالْيَاءُ وَالشِّينُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَيَاةٍ وَبَقَاءٍ[(١)]. وفي المعجم الوسيط: (تعايشوا) عاشُوا على الألفة والمودة وَمِنْه التعايش السّلمِيّ[(٢)]. فهي تعطي معنى الاشتراك في الحياة على الألفة والمودّة.

والعَيْشُ: الحَيَاةُ، تقول: عاشَ يَعيشُ عَيْشاً ومَعاشاً ومَعِيشاً ومَعيشَةً وعِيشَةً، بالكسر، والمَعِيشَةُ التي تَعِيشُ بها من المَطْعَمِ والمَشْرَبِ، وما تكونُ به الحياةُ، وما يُعاشُ به أو فيه، ويقال: رجُلٌ عايِشٌ: أي، له حالةٌ حَسَنَةٌ[(٣)].

والتعايش على وزن "تفاعل" ويأتي على هذا الوزن كل ما يدلّ على المشاركة، ويقتضي وقوع الفعل من اثنين فصاعدًا[(٤)]. وعلى هذا فإن (التعايش) و (المعايشة)

---

(١) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المُتَوَفَّى: ٣٩٥هـ)، ج٤، ص١٩٤، ط. دار الفكر- بيروت: ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.

(٢) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٢، ص٦٣٩، ط. دار الدعوة- مصر (بدون تاريخ).

(٣) القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المُتَوَفَّى: ٨١٧هـ)، ص٥٩٩، ط٨/ ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

(٤) درة الغواص في أوهام الخواص لأبي محمد الحريري، تحقيق: عرفات مطرجي، ص٣٤ (بتصرف)، ط١/ ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م، مؤسسة الكتب الثقافية.

علاقة إيجابية بين طرفين من الناس أو أطراف متعددة، يحصـل بينهم تواصـل وتكامل وتعاون وتقارب وتوافق على أمور في الحياة المشتركة.

ثانيًا: تعريف "التعايش" في الاصطلاح:

والتعايش اصـطلاحا يقترب من مدلوله اللغوي، وقد اختلفت أقوال المتخصـصـين في تعريف التعايش؛ كل حسـب تخصـصـه وفنّه، غير أنّ ما يتقارب مع فكرة البحث، من تعايش المسلمين مع غيرهم تعبر عن "التقاء إراردة أهل الأديان السماوية في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعمّ بني البشر جميعا من دون استثناء"[(١)].

فإذا قلنا (تعايش) بين الناس....

فإنَّ المقصود: اجتماع مجموعة من الناس في مكان واحد، تربطهم وسائل وأساسيات حياة مشـــتركة، بغضّ النظر عن اختلاف الدين والانتماءات الأخرى، كما ينبغي أن يعرف كل منهم ماله وما عليه.

وعلى هذا كان النّص القرآني المفسّـــر لهذه الدلالات –في ســـورة الممتحنة– حيث يقول الحق جلّ في عُلاه: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ﴾ [الممتحنـة: ٨]. فـالتعـايش بِرٌّ وإحسـان، يعني التعاون والتفاعل المشـترك إيجابا وَسِـلْمًا، ومنه ما يكون بين الأفراد في المجتمع الواحد، ومنه ما يكون بين الدول، وهو ما تصـبو إليه الشـعوب العاقلة؛ حيث يكون بديلا عن العداء والصراع والتناحر.

(١) الإســلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشــرين: د. عبدالعزيز التويجري، ص١٣ (بتصــرف)، من منشــورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ط٢/ ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.

ثالثًا: ارتباط التعايش بالسّلْمية:

وارتباط التعايش بمبدأ السِّـلْم: يعبر عن الصُّـلح والتصـالح الإنسـاني، ولا طريق من خلاله إلى التعارك والتصارع؛ بل تطبيقاته في التعاون والتشارك والتكامل.

ولذا فقد عرّفه البعض بأنـه: "العيش المتبادل مع الآخرين، ولا يكون التعايش إلا بوجود الألفة والمودة، ولا يعيش الإنسان مع غيره إلا إن وجد بينهما تفاهم ورغبة بعيشة مشتركة، لُحْمتها الألفة، وسداها المودة والثقة"(١).

فالتعايش السـلميّ إذًا هو "اتفاق بين طرفين على تنظيم الحياة المشـتركة، وفقًا لضوابط متفق عليها، ففرق كبير بين أن يعيش الإنسان مع نفسه، وبين أن يتعايش مع غيره،..."(٢) والسِّلمية صفة للتعايش المنشود بين الناس في المجتمعات.

رابعًا: تعريف إجرائي لمفهوم "التعايش السلمي":

إنّ نسـبة كلمة (السِّـلْمِيّ) إلى كلمة (التعايش) بمثابة الوصـف المؤكّد للموصـوف. ويمكن وضـع تعريف إجرائي لمفهوم (التعايش السـلمي)، فهو يمثّل: ((الدلالة على احترام كل طرف من أطراف المجتمع الواحد خصوصيات الآخر مع استيعابه والاندماج الإنسـاني معه في أمور الحياة المختلفة دون الذوبان، مع اسـتقلال الهوية الدينية دون تبعية للآخر)) فالتعايش استقامة المعاملات الإنسانية مع المخالفين المُسالمين وإكرامهم وفقًا لتوجيهات الشريعة الإسلامية وقواعدها.

(١) الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب: شوقي أبو خليل، ص١٢، ط. دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
(٢) الحوار من أجل التعايش: د. عبدالعزيز التويجري، ص٧٨ (بتصرف)، ط١/ ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م، دار الشروق– مصر.

النقطة الثانية:

مجتمع المدينة المنورة عند الهجرة النبويّة

من المعلوم أنّ البيئة المكيّة السـابقة للإسـلام قد اشـتعلت بالكثير من الاختلافات الدينية والعرقية والقومية والطائفية؛ حيث كان الكثير من أبناء الجزيرة العربية يعتبرون أنفسـهم أرقى وأنقى من غيرهم، حتى إنهم كانوا يتفاخرون على أبناء القبيلة الواحدة أحيانًا. وقد سـاد ذلك زمنًا طويلا، ما بين الغنى والفقر، الشـكل والهيئة في الملبس والبَشْرَة ... إلى غير ذلك.

ولم تبتعد البيئة (**اليثربية**)[1] كثيرًا عن طبيعة البيئة (**المكيّة**) حينها، بل ربما كانت المدينة أشـدّ؛ لوجود فئة اليهود التي كانت حين بداية الدعوة تتحيّن الفُرَص لإجهاض حركتها وإفشـال خطتها السّـلمية الرشـيدة، فضـلا عن وجود زعاماتٍ ارتمت –بسـبب ظهور الإسلام– إلى حضن النفاق، لكن بئس ما فعلوا وما صنعوا!

وإذا نظرنا إلى طبيعة بيئة المدينة، فأمامنا البيئة الجغرافية والبيئة الإنسـانية، فأما البيئة الجغرافية فإنّ المدينة تعدّ بمثابة مصـيف لأهل مكة وغيرهم؛ لما امتازت به جغرافية المدينة المنورة من وجود المشـاتي بها، ووقوعها على طريق التجارة المحلية والإقليمية والعالمية. وتلك الجغرافيا أهّلتها لتكون دولة تجارية مسـتهدَفَة من الدّاخل والخارج..

(١) نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سان بن نوح (عليه السلام). [ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، ج٤، ص١٢٨، ط٢/ ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م، جامعة بغداد – العراق].

وحتى نتعرّف أكثر على تلك الطبيعة يلزمنا النظر في طبيعة البيئة البشرية والإنسانية، المسماة بالطبيعة الديموغرافيّة[١] –وهي الطبيعة السكانية الموجودة في مجتمع معيّن–، ومجتمع المدينة تنوعّت طوائف السكان فيه، ومن أشهر سكان يثرب طوائف اليهود والأوس والخزرج وهم عُرب نزحوا من بلاد اليمن إلى يثرب، وبعض النصارى، ومجموعات وثنيّة، لكن أهم تلك الطوائف وأكثرها (اليهود والأوس والخزرج).

وإلى إطلالة سريعة على بعض طبائعهم وأحوالهم قبل الهجرة المباركة إلى المدينة، وبيان ذلك على النحو التالي:

أولا: اليهود: وقد اختلفت الروايات التي تحدثت عن أصلهم ومن أين جاءوا؟ وبداية مجيئهم إلى يثرب؛ حيث تحكي بعض الروايات التاريخية أنّ مجموعةً من اليهود أتوا المدينة فرأوا صفة بلد نبيٍّ يجدُون وصفَهُ في التّوراة، فنزلت طائفة منهم في موضع سوق بني قينقاع، فكان استيطانهم للمدينة رغبةً في انتظار النبيّ المنتظر، وقيل استوطنوها هروبًا مما حدث لهم من ابتلاءات في بلاد الشام على يد (بختنصر البابليّ) واستيلاء الرومان على أقطار عديدة حينها[٢] وقد نقل اليهود خبراتهم الزراعية والصناعية إلى يثرب حين انتقلوا إليها، فصار لهم سيطرة اقتصادية وصناعية وبنائيّة، كما رأينا ذلك تاريخيا في أسواقهم التجارية بالمدينة

(١) كلمة مكونة من مقطعين إغريقيين هما **Demos** وتعني ش عب أو س كان، و **Graphia** وتعني و صف، وبذلك يكون معنى الكلمة بعد إضافة المقطع الأول إلى الثاني: (وصف السكان والكتابة عنهم)، ومن أبسط تعريفات الديموغرافيا، أنها: علم إحصائي يهتم بدراسة حجم وتوزيع وتركيب وطبيعة السكان من حيث النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. كما يتحدث هذا العلم عن أثر البيئة الجغرافية على الطبيعة السكانية للإنسان. [ينظر: دراسات في علم السكان: د. فتحي محمد أبو عيانة، ص١٤ (بتصرف) ط١/ ١٩٨٤م، دار النهضة العربية– بيروت، وأسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية: د. أحمد علي إسماعيل، ص١١، ١٢ (بتصرف)، ط٨/ ١٩٩٧م، دار الثقافة والنشر والتوزيع– القاهرة، مصر].

(٢) يُنظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي (المُتَوَفَّى: ٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبدالسلام السلامي، ج٤، ص١٧٢، ط١/ ١٤٢١هـ-= ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وفصول من تاريخ المدينة: علي حافظ، ص١٧، ١٨ (بتصرف)، ط٣/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

وبناء الحصون الشامخة القوية[١] مع شيوع توظيفهم للربا في المعاملات التجارية لفرض السيطرة على سكان المدينة باختلاف طوائفهم.

ثانيًا: الأوس والخزرج: "وينتمون إلى قبيلة الأزد اليمانية الكبيرة والتي خرجت من اليمن إلى الشمال في فترات مختلفة، ربما أقدمها في حدزد عام ٢٠٧م عندما هاجرت خزاعة إلى مكة"[٢] وكانت بدايتهم الهروب مما حدث لسد مأرب باليمن، الذي ظهرت عليه معالم الانهيار -ومن ثمّ تفتقر الحياة لأدواتها- فجاءوا إلى يثرب بعد أن أزال سيد العرم أرضهم الخصبة، التي وصفها القرآن في سورة سبأ بالكثير من النعم، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سورة سبأ: ١٥، ١٦]. "... فاستوطنوا يثرب وعقدوا تحالفات مع اليهود فتكاثروا بها، وربما كاد بهم اليهود زمنًا؛ خوفًا من زيادة عددهم بيثرب، إلا أن المقام استقر بهم في يثرب بعد أن كثرت مساكنهم وقويت شوكتهم وتكاثروا، وصار بينهم وبين اليهود عِرَاك ونزاع، فضلا عن العراك بين الشقيقتين -الأوس والخزرج- وهو نزاع تاريخي مشهور..."[٣]. وقبله وقعت نزاعات أُخرى لأسباب متعددة، منها: شتم أحدهم للآخر، أو ضرب امرأة لامرأة، أو قتل أحدهم، وكانت تقع الحرب بينهم

(١) المجتمع المدني في عهد النبوة "خصائصه وتنظيماته الأولى": د. أكرم ضياء العمري، ص٥٩، ٦٠، ط١/ ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م، المجلس العلمي "إحياء التراث الإسلامي" بالمملكة العربية السعودية.

(٢) المرجع نفسه: ص(٦٠).

(٣) ينظر: مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها: الشيخ حسن خالد (مفتي لبنان سابقًا)، ص٣٠، ط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان: ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م، وانظر أيضًا: المدينة المنورة في التاريخ: عبدالسلام هاشم حافظ، من ص٢٧ إلى ٣٢ (بتصرف)، ط٣، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م، طباعة نادي المدينة المنورة الأدبي، وتوزيع: الوكالة العامة للتوزيع- دمشق.

لأسباب –أقل ما يُقال عنها أنها– تافهة، وما أشعلها إلا العصبية الضيقة، وتعددت حروبهم، منها: "حرب بني وائل بن زيد الأوسيين، وبني مازن بن النجار الخزرجيين، وحرب بني ظفر من الأوس، وبني مالك من الخزرج، وحرب فارع، وحرب حاطب، ويوم الربيع، وحرب الفجار الأولى، وهي غير حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة، وحرب معبس ومضرس،..."[(١)].

ولقد كان لليهود أكبر الأثر في إشعال فتيل التنازع الدائم بين الأوس والخزرج، فبعد أن استوطن الأوس والخزرج مدينة يثرب "حاول اليهود الدفاع عن تسلّطهم – وسيطرتهم في يثرب– بتفتيت وحدة العرب من أوس وخزرج وإثارة الشقاق بينهم، فأفلحوا في إذكاء العداوة وقيام الحروب بين الجانبين، وآخر ذلك يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات"[(٢)] وهي تلك الحرب التي قضت على قيادات كثيرة من رجالات الأوس والخزرج.

وعلى هذا فإن مدينة (يثرب) كانت قبل الهجرة النبوية إليها مسرحًا لأحداث التعارك والتنازع والتنافس الشرس بين طوائفها المختلفة، من عرب مشركين (أوس وخزرج) إلى جانب الطوائف اليهودية المختلفة (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة) وحصل التداخل الديني والاجتماعي بين اليهود والأوي والخزرج.

هنا ينبغي التأمل قليلا: بأن كل هذه الاختلافات وهذا التنوع العجيب في الطبيعة السكانية إنما هو بقدر من الله –قد حدث–؛ كأنّه بمثابة تهيئة عملية لاستقبال النور القادم من مكة، الذي ينشد الاستقرار والسكينة؛ فقد تعاظمت رغبة رجالات الأوس والخزرج العقلاء –حينها– في العيش بسلام وهدوء، فكانت بشائر الهجرة

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج٤، ص١٣٩ (بتصرف) (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).
(٢) المجتمع المدني في عهد النبوة: ص٦١ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

المباركة قد بدأت تلوح في الأُفق، حتى إن السيدة عائشة -رضي الله عنها- عبّرت عن ذلك بقولها: «كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ، يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ[1] وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلاَمِ»[2]. فهذه النزاعات ونتائجها الوخيمة قد أيقظت في نفوسهم حب الوئام والسلام.

ويظهر مما سبق: أنّ التفكك الاجتماعي كان أساسًا في علاقة اليهود بعرب يثرب، فضلا عن النزاع المستمرّ بين العرب الوثنيين أنفسهم، وكان صراعًا عنيفًا عقديًّا وسلوكيًّا واجتماعيًّا. لكن السؤال المطروح الآن: كيف عاش هؤلاء مع هذه الاختلافات؟ كيف يتعايش هؤلاء مع الطبائع المتنافرة المتناكرة؟ بل كيف سينتقل النبي -صلى الله عليه وسلّم- إليهم بدين جديد ورؤية جامعة؛ ليجمعهم تحت راية الوطنية والمواطنة؟

وتأتي الإجابة تفصيلا على تلك التساؤلات في المباحث التالية...

(١) "وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ" أَيْ: أشْرَافهم [النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ج٢، ص٣٦٣، ط. المكتبة العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م].

(٢) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، حديث رقم (٣٧٧٧).

المبحث الأول

مرتكزاتُ التعايش السلميّ في القرآن والسنّة

المبحث الأول:

مرتكزات التعايش السلمي في القرآن والسنّة

لقد أسَّس الإسلامُ ثقافة التعايش وبناها في النفوس؛ مراعاة للفطرة السوية والفروق الفردية بين الناس؛ فإنَّه ممَّا لا شكّ فيه أن سنّة الله في خلقه الاختلاف بطبيعتهم الخِلقية والفطرية؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: آية ١١٨، جزء من آية ١١٩]. فالاختلاف واقع بمشيئة الله تعالى، ولا رادّ لمشيئته وإرادته.

كما أنّ ثمت فروقا فردية بين جميع الأجناس في الأرض من مخلوقات جماديّة أو حيوانيّة أو إنسانيّة أو حتّى نباتية؛ قال جل شأنه: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ومع كلّ هذه الفروق وتلك الاختلافات الطبعية فإنّ الشريعة الإسلامية أكّدت في مواضع كثيرة فرضية التعايش بين المختلفين، وإلا لما عاش أحد على ظهر هذه المعمورة، وتأكدت تلك الحقائق في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فضلا عن قواعد الشريعة ومقاصدها الكلية.

فلقد جاءت توجيهات الإسلام واضحة لأتباع الدين بضرورة التعايش السلمي مع مخالفيهم، بحيث يغلب على العلاقات: السلمية والهدوء والسكينة والتكامل في أمور الحياة الإنسانية المختلفة، مع احتفاظ الكلّ بعقيدته وانتمائه.

أولا: مرتكزات التعايش السلمي من خلال القرآن الكريم

١. تكريم الإنسان لإنسانيته قبل كل شيء؛ ففي كتاب الله مبدأ واضح بأن الإنسان مكرّم في شكله وهيئته، ومن ثمّ ينبغي إكرامه عند المعاملات المختلفة، دون إهانة أو تجريح، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. يقول الزمخشري: "قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم. وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم"(١). ويقول الإمام الشوكاني – عن ذلك–: "... هذا إجمال لذِكْر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم، أي: كرمناهم جميعا، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله"(٢).

ووجه الدلالة بهذه الآية: أنّ كرامة الإنسان المحفوظة له مهما كان دينه ومعتقده، فسيظل بنيان الله هو الإنسان ولن يتغير إلى كائن آخر، وتلك الكرامة تقتضي ألا

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المُتَوَفَّى: ٥٣٨هـ)، ج٢، ص٦٨٠، ط٣/ ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي– بيروت.

(٢) فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المُتَوَفَّى: ١٢٥٠هـ)، ج٣، ص٢٩٠، ط١/ ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب– دمشق، بيروت.

يتم إكراه مخالِف على اعتناق الإسلام؛ فلا وجه للإكراه، وكما قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: جزء من آية ٢٥٦] فلا شكّ أن هذه الكرامة الإنسانية دعامة قوية لتحقيق التعايش السلمي بين المخالفين.

٢. الأمر بالعدل والإحسان مع كل الناس؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. والعدل المأمور به في الآية الكريمة: "يتناول القول، والفعل، والإشارة؛ بل يتناول كل المعاملات في شتى صورها. والعدل: جماع الفضائل كلها؛ فمن جعل العدل ديدنه: أحاطه الحب من كل جانب، وصار في عداد الأبرار، الأخيار..."[(١)] وقيل: "العدل الإنصاف، والإحسان التفضّل"[(٢)].

ووجه الدلالة بهذه الآية: أن الشرع الحكيم أوجب إقامة العدل مع القريب والبعيد، وحذّر من مخالفة ذلك في التعاملات البشرية مع القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، وهذا مرتكز في غاية الأهمية عند تعاملات المسلمين مع مخالفيهم، وخاصة في أقطارهم الإسلامية؛ فالعدل أمر عام لا خاص، ولا تجزئة في مبادئ الإسلام ومرتكزاته الدينية والإنسانية.

٣. الأصل في العلاقات مع المُخالِفين قائمة على البرّ؛ ولننظر إلى قول المولى الجليل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

(١) أوضح التفاسير: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المُتَوَفَّى: ١٤٠٢هـ)، ج١، ص٣٣١، ط٦/ ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م، المطبعة المصرية– مصر.

(٢) فتح القدير للشوكاني: ج٣، ص٢٢٥، (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

ووجه الدلالة بهذه الآية: أنّ القرآن الكريم يدعونا إلى معاملة مَن يُخالفنا في الدين والمعتقد بالبر والإحسان؛ بحيث نتزاور ونتسامر ونتعايش في أمور الحياة المشتركة. يقول ابن كثير –رحمه الله–: "أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم أن تبروهم أي تحسنوا إليهم وتقسطوا إليهم، أي: تعدلوا إن الله يحب المقسطين"(١).

٤. الإقرار بالتعددية الدينية والثقافية والفكرية: إلا أنّ العلة في التعددية تقوية روابط التعارف والتكامل الإنساني، ولعل من أشهر الآيات الدالة على ذلك، ما ورد في سورة الآداب الاجتماعية (الحجرات)، وفيها يقول ربّنا سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات: ١٣].

ووجه الدلالة بهذه الآية: في هذه النداء الإنساني بيان لعلّة من عِلل خلق البشر مختلفين في اللغات، واللهجات، والألوان، والأجناس، والثقافات، والمعتقدات، وهي علة التعارف، وهذا يُنبئ بغاية التواصل البشري؛ ليعمر الناس الأرض ويسعى أبناء الوطن باختلاف مذاهبهم وأفكارهم ومعتقداتهم إلى بناء المجتمع وحمايته، وأما أمر التفاضل فهو عند الله على أساس التقوى. وعلى هذا فإنّ الأصل في العلاقات الإنسانية التعارف لا التناكر، والتواصل لا التدابر.

٥. حق غير المسلم على المسلم: النصيحة والإرشاد والخير، يقول الحق جل وعلا: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المُتَوَفَّى: ٧٧٤هـ)، ج٨، ص١١، ط١/ ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية– بيروت.

فليس معنى الرغبة في التعايش مع المخالف، أن يُحرَم من حقه في النصيحة المشفقة، والأخذ بيده إلى مكامن الخير.

وهنا يظهر وجه الدلالة بالآية السابقة: لا تناقض بين حرية المخالف في اعتناق ما يريد ولزوم حقه في دعوته وإرشاده بالحكمة التي تقتضي استخدام القول اللين الجميل، وعلى هذا فإنّ من حقّ المخالف تعليمه ونصحه وإرشاده إلى الطريق المستقيم.

٦. استخدام القول الحسن مع الناس، ولو كانوا على غير الإسلام؛ فهذا ميثاق أخذه الله تعالى على بني إسرائيل ومن تبعهم، فقال لهم جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

ووجه الدلالة بهذه الآية: أنّ الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل ودعاهم إلى القول الحسن، وهي في ذات الوقت وصية لأهل الإيمان بضرورة التواصل الإيجابي الفعال مع الناس –باختلاف أشكالهم وألوانهم– ويتمثل ذلك في استخدام القول الطيب، حتى عدّته الشريعة من الصدقات الراقية.

٧. الأمر بالعدل في تعامل المسلمين مع مخالفيهم؛ فليس معنى الخلاف العقدي أن يُظلَم من لا ينتسب للإسلام؛ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. ففي هذه الآية أمر واضح من الله لعباده المؤمنين بـ "بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل؛ فإن القوّام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالأمر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في

المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصـلحة أحد، ولو كانت على أنفسـهم أو والديهم والأقربين منهم، وألا يحابوا فيها غنيا لغناه تقربا إليه أو تكريما له، ولا فقيرا لفقره رحمة به وشـــفقة عليه، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشـــهادة كراهة ألا يعدلوا فيهما لمراعاة من ذكر من الناس، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه"[(١)].

ووجه الدلالة بهذه الآية: أنّ الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالعدل والقســـط في القول والفعل، كما أمر بالعدل مع المخالفين واعتبر ذلك سـمة من سـمات التقوى ودلالة مؤكّدة على صدق الإيمان، وهنا قمة التعايش السلمي: أن يأخذ كل إنسان حقه ولو كان من المخالفين لأهل الإسـلام؛ فالعدل سمة أهل التعايش وهو منهج أصيل في الإسلام.

٨. الدعوة إلى الاتفاق على القواسـم المشـتركة في التعامل بين المسـلمين وغيرهم؛ يقول الحق سـبحانه: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعبدالا اللهَّ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهَّ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

ووجه الدلالة بهذه الآية: أنّ المولى –جل وعلا– يُرشدنا إلى تغليب صوت التعايش في التعامل مع أهل الكتاب (المخالفين للدين)، فقوله (كلمة سـواء) تعني: الاتفاق على القواســـم المشـــتركة بين أبناء المجتمع، والعمل من خلالها على تجميع الصـــف الوطني وبناء الأخوة المجتمعية؛ تحقيقًا للكرامة، وصيانة للمجتمع وأهله.

ومن وجوه الدلالة الإجمالية لمجموع ما سبق من آيات بيّنات، ما يأتي:

(١) تفسـير القرآن الحكيم (تفسـير المنار): محمد رشـيد بن علي رضـا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المُتَوَفَّى: ١٣٥٤هـ)، ج١١، ص٢٢١، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م.

- أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم قائمة على السلام والقبول والتعاضد والتعارف؛ فلقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان في الأقوال والسلوكيات مع المُخالفين.
- الدعوة إلى تكريم الإنسان كإنسان، مهما اختلفنا في الدين والمعتقد؛ فالإنسان كائن مكرّم لا يُهان ولا يقبل الله من عبد عملا خلطه بإهانة واحتقار بنيانه في الأرض وهو الإنسان. كما أنّ احتقار الآخر يلغي أي قيمة تبليغية أو تشوف لهداية المخالف إلى الحق.
- لا يتحقق التعايش إلا بالتعارف والتكامل، فهل يحدث ذلك بالصراعات والاختلافات القاتلة؟ أبدا! ونحن مأمورون بالقول الحسن مع الناس، فهل يتحقق القول الحسن بالغِلْظَة والعنف والشدة والقهر؟!!
- ضرورة العدل مع المخالفين؛ فليس معنى كراهية الإنسان لدين آخر أو بغضه لسلوكيات إنسان ما، ليس معنى ذلك أن يؤذيه وأن يشتمه أو أن يظلمه في أمر من الأمور.. وليس أدلّ على فرضية التعايش ومشروعيته من النداء القرآني لأهل الكتاب –غير المسلمين– (تعالوْا إلى كلمة سواء)، ففي ذلك دلالة على عمق مبدأ التعايش في الدين الإسلامي، وتلك هي خطات يخطوها الإسلام نحو الآخر، وتبقّى على الآخر أن يُثبت أين موقعه؟ وأين خطوات تقاربه مع الناس؟ لذا كان التعايش فريضة شرعية لازمة لإقامة تلك الأصول مجتمعة، وفقا لضوابط الشرع وغايات التواصل الإنساني.

ثانيًا: مرتكزات التعايش السلمي من خلال السنة النبوية

١. الإقرار بأنّ الناس جميعا إخوة في الإنسانية، ففي الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه -بسند ضعيف-، عن زيد بن أرقم، سمعتُ نبى الله -صلَّى الله عليه وسلم- يقول دبُرَ صلاتِه: (اللهم ربَّنا ورب كل شيءٍ، أنا شهيدٌ أنك أنتَ الرب وَحدَكَ لا شَريكَ لكَ، اللَّهُمَ رَبنا ورَبَّ كُلِّ شيءٍ، أنا شهيد أن محمداً عَبدك ورسولُك، اللهم ربنا ورب كلِّ شيءٍ، أنا شهيدٌ أن العبادَ كلَّهُم إخوة، اللَهُمَّ ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعةٍ في الدُنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسْمَع واستَجِب، الله أكبرُ الأكبرُ اللهُمَّ نورُ السماواتِ والأرض...)[(١)].

٢. التحذير المباشر من قتل أو ظلم أو إكراه أو الغدر بغير المسلم لمجرد الاختلاف الديني، وأنّ من وقع في ذلك فمحروم من العطاء الإلهي والكرم الرباني يوم القيامة؛ ففي الحديث: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[(٢)] يقول ابن حجر في الفتح: "...والمراد به من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم"[(٣)]. كما ورد في الحديث -أيضًا- الترهيب من مخاصمة الرسول -صلى الله عليه وسلّم- لمن شارك في ظلم معاهد أو غير مسلم، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**ألا مَن ظَلم**

(١) سنن أبي داود: أبواب فضائل القرآن، باب ما يقول الرجل إذا سلم، حديث رقم (١٥٠٨)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في التحقيق: (ضعيف).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم (٣١٦٦).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ج١٢، ص٢٥٩، ط. دار المعرفة- بيروت: ١٣٧٩هـ

مُعاهِداً أو انتَقصَهُ أو كلَّفَهُ فوقَ طاقَتِه أو أخَذ منهُ شيئاً بِغيرِ طِيبِ نَفسٍ فأنا حَجِيجُهُ يوم القيامةِ»[(١)] فهذا سمت الإحسان الذي نادى به الإسلام!

٣. جواز الدعاء لغير المسـلمين تأليفا للقلوب وطلبًا للهداية: وهل أدل على ذلك في إقرار مبدأ التعايش والدعوة إليه؛ ففي الحديث عن أبي بُردة عن أبيه، قال: كانت اليهودُ تعاطَسُ عند النبي –صـلى الله عليه وسـلم–، رجاء أن يقولَ لها: يرحمُكُم اللهُ، فكان يقول: "**يهدِيكُم اللهُ ويُصْـلِحُ بالكُم**"[(٢)]. وقد نقل الإمام القاري[(٣)]: "قال الطيبي: لعل هؤلاء هم الذين عرفوه حق معرفته، لكن منعهم عن الإسـلام إما التقليد، وإما حب الرياسـة، وعرفوا أن ذلك مذموم، فتحروا أن يهديهم الله تعالى ويزيل عنهم ذلك ببركة دعائه عليه السلام أ.هـ".

كما ثبت في السنّة دعاء النبي –صلى الله عليه وسلّم– لقبيلة دوس –وهي يومئذ قبيلة مشركة–، ففي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أنه قال: قَدِمَ طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِـيُّ وَأَصْـحَابُهُ، عَلَى النَّبِيِّ –صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ–، فَقَالُوا: يَا رَسُـولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًـا عَصَـتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ**»[(٤)] كما دعا النبي –صـلى الله عليه وسـلم– لأمّ سـيدنا

(١) سنن أبي داود: أول كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في الذِّمِّي يُسلِم في بعضِ السنة، أعَليه جزيةٌ؟، حديث رقم (٣٠٥٢) وقال عنه في التحقيق: (حديث حسن).

(٢) سنن أبي داود: أول كتاب الأدب، باب كيف يُشمَّتُ الذميّ، حديث رقم (٥٠٣٨)، وهو حديث صحيح الإسناد.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المُتَوَفَّى: ١٠١٤هـ)، ج٧، ص٢٩٨٩، ط١/ ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت– لبنان.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، حديث رقم (٢٩٣٧) ولنا أن ننظر في حكمة وتوفيق الله تعالى للإمام البخاري؛ حيث بوّب هذا الحديث تحت عنوان: (الدعاء للمشـركين بالهدى ليتألّفهم) وتلك هي سـنة الدعوة بالحكمة، وغايتها الهداية، ووسـيلتها التعايش والدعاء، ويجب هنا أن نفرّق بين حالة السـلم وحالة الحرب، وحالة

أبي هريرة –رضـــي الله عنه– بالهداية، وهي مواطِنة من أبناء المجتمع غير أنها مشركة، فدعا لها بقوله: «**اللهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**»[١].

٤. جواز الزيارة لغير المسـلم من المرضـى والفقراء وأصـحاب الحاجات: فقد قام النبيّ –صـلى الله عليه وسـلّم– بزيارة الغلام اليهودي حين مرِض.. ففي الحديث عن أنس بن مالك –رضـــي الله عنه–، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسـه، فقال له: «أسـلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسـم ﷺ، فأسـلم، فخرج النبي –صـلى الله عليه وسـلم– وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[٢]. ويعلق ابن حجر في فتح الباري على ذلك بقوله: "وفي الحديث جواز اسـتخدام المشـرك وعيادته إذا مرض وفيه حسـن العهد"[٣]. ويقول الإمام العيني[٤] عن هذا الحديث: "وَفِيه: جَوَاز عِيَادَة أهل الذِّمَّة، وَلَا سِـيمَا إِذا كَانَ الذِّمِّيّ جارا لَهُ، لِأَن فِيهِ إِظْهَار محَاسِـن الْإِسْـلَام وَزِيَادَة التآلف بهم لِيَرْغَبُوا فِي الْإِسْـلَام. وَفِيه: حُسـن الْعَهْد. وَفِيه: عرض الْإِسْـلَام على الصَّـبِي، وَلَوْلَا صِـحَّته مِنْهُ مَا عرضـه عَلَيْهِ....". فهل بعد هذا دليل على

التعايش في وقت المسالمة، ووقت المحاربة والعداوة الظاهرة؛ حيث حق للمخالفين المسالمين أن ندعو لهم ونرجو لهم الخير ونشفق عليهم، أما المحاربين الخائنين المعتدين فلا يُعقل بحال أن يقول أحد بأننا مطالبون بالدعاء لهم حين القتال والحرب.

(١) صـحيح مسـلم: كتاب فضـائل الصـحابة رضـي الله عنهم، بَابُ مِنْ فَضَـائِلِ أَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِـيِّ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٤٩١).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث رقم (١٣٥٦).

(٣) فتح الباري لابن حجر: ج٣، ص٢٢١ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

(٤) عمدة القاري شـرح صـحيح البخاري: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسـى بن أحمد بن حسـين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المُتَوَفَّى: ٨٥٥هـ)، ج٨، ص١٧٥، ط. دار إحياء التراث العربي– بيروت (بدون).

فرضية التعايش؟!!. كما ظهر ذلك أيضًا في مؤاكلة النبيّ لغير المسلمين، إما عندهم في بيوتهم، أو بدعوتهم في بيته.

٥. التأكيد على جواز التجارة والمؤاكلة والمصادقة لغير المسلمين في المجتمع المسلم، وهنا تعظم الروابط الإنسانية ويتوافق أبناء المجتمع على القواسم المشتركة من خلال علاقاتهم التجارية والاجتماعية والسياسية والإنسانية، ولقد استطاع رسولنا ﷺ من خلال هذا المرتكز أن يصنع مجتمعًا واحدا، متآلفا، مترابطًا، يجمع أبناءه تحت راية واحدة، وهي راية القواسم المشتركة المتفق عليها، مع اختلافهم دينيًّا وعِرقيًّا وطائفيًّا. ومن الأمثلة الدَّالّة على ذلك أنّ النبي -صلى الله عليه وسلّم- رهنَ دِرْعَه عند يهوديّ، فعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قَالَتْ: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ**، بِثَلاَثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»[(١)] وهذا تأكيد عمليّ على تعظيم الرابطة الإنسانية المشتركة بين أبناء المجتمع الواحد.

٦. الاعتراف بفضل أهل الفضل من غير المسلمين: ولقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه تذكّر فضل أحد المشركين عليه يوم عاد من الطائف، ولم يجد من يسانده سواه، ودخل في جواره إلى مكة، ومرّت الأيام، وإذ برسولنا عند بدر في العام الثاني من الهجرة يتذكّر الرّجل وهو يقف على جثث القتلى يوم بدر، فيقول في شأنه: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[(٢)]. إنها رسالة

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، والقميص في الحرب، حديث رقم (٢٩١٦).

(٢) صحيح البخاري: كتاب فرض الخُمس، بَابُ مَا مَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الأُسَارَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمِّسَ، حديث رقم (٣١٣٩).

للمتشددين الذين يتنكّرون لأصحاب الفضل بلا مبرر شرعي ولا عقلي ولا وطنيّ ولا عُرفيّ.

ولقد كان لهذا التعايش بين المسلمين وغيرهم أكبر الأثر في الرقيّ المجتمعيّ والاجتماعي وتحصين الأجيال الناشئة من شرور المعارك التافهة القاتلة للهمم والطموحات. وقد سار الصحابة ومن تبعهم على نفس النهج الكريم في مراعاة حقوق غير المسلمين وطلب الخير لهم، فانتعشت الدولة الإسلامية، وازدهرت، وأينعت ثمارها زمنًا طويلا، جعل الغرب قبل الشرق يتعجب من أمرها، ويشهد لها.

وما سبق يؤكّد أن الإنسان -فطريًّا- لا يقْوَى على العيش وحده، وبالتالي هو بحاجة إلى مَن يعاونه ويعضده ويسانده على أعباء الحياة، وإلا مات مُبكرا مهزومًا، وقد أكّد علماء الاجتماع هذه الحقيقة، أنّ الإنسان اجتماعي بطبعه وفطرته، فلا يقدر أن يعيش وحده، وأن يعمّر وحده، وأن يبني وحده، ولذا كان التوجيه القرآني: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فكيف يتحقق التعاون والتكامل بلا بشر يتفقون ويتلاقون ويتعايشون!

كما أنّ المجتمعات لا تُبنَى بحزبٍ واحد ولا جماعة بعينها؛ فالحضارات هي نتيجة تفاعل الأفراد وتعاونهم، وتتزايد الخبرات وتتراكم بقوة التعايش والتفاعل بين أبناء المجتمع الواحد. ولنا أن ننظر في وثيقة المدينة ودستورها الأول؛ حيث أكّدت – مرة بعد مرة– على تلك القواسم المشتركة، وأنّ الأمن للجميع، وإعطاء فرصة للجميع بالمشاركة البناءة في بناء الوطن اجتماعيا وسياسيا وعسكريا بصورة عادلة، وسيأتي بيان ذلك تفصيلا في المبحث الأخير من هذا البحث.

المبحث الثاني

مقاصد التعايش السلمي المنشودة

المقصد الأول : إظهار الصورة الإيجابية عن الإسلام

المقصد الثاني : تحقيق الوحدة وحصار العداوات

المقصد الثالث : تحقيق التنمية الشاملة والريادة الحضارية

المقصد الرابع : إقامة العدل وتحقيق المساواة بين أبناء المجتمع

المقصد الخامس : تحقيق الأمان العقدي والحرية الفكرية

المقصد السادس : تحقيق الأمن المجتمعي لأفراد الدولة

المقصد السابع : عمارة الأرض وبناء الأوطان

المقصد الثامن : تنشيط مبدأ التكافل الاقتصادي والاجتماعي

المبحث الثاني:

مقاصد التعايش السلميّ المنشودة

لقد كانت همّة النبيّ –صلى الله عليه وسلّم– حين وصل إلى المدينة قائمة على تحقيق الإصلاح الكامل للأفراد والمجتمع، إصلاح يشمل جغرافية المكان، إعداد الإنسان، وتحقيق الأمن والأمان.

فلم تكن هجرته إلى يثرب رحلة ترفيهية ولا طلبا للراحة والاستجمام؛ بل كانت بداية انطلاق نحو بناء حقيقي للحياة والأحياء، وأقام دولته على أسس التعايش المشترك بين المختلفين –سواء كان الاختلاف ذا صلة بالدين أو العِرق أو البيئة–، وما كان ذلك إلا رغبة في تحقيق عدد من المقاصد السامية، ومن بينها ما يأتي:

المقصد الأول:

إظهار الصورة الإيجابية عن الإسلام

إنّ الناظر في دولة المدينة الأولى يراها وقد تجذّرت محبة الإسلام في قلوب العقلاء من غير المسلمين؛ فهذا عبدالله بن سلام –وهو الحَبْر العالِم اليهودي– يعترف بصدق النبي –صلى الله عليه وسلّم– منذ لحظة قدومه إلى المدينة، فاعترف بصدق الرسول –عليه السلام–، كما أنه هو هو راوي حديث إفشاء السلام –في بداية نشأة الدولة–؛ فعَنْ عبداللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ

كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(١).

ومثل هذه التصرفات السلوكية لغير المسلمين ترسم صورة حسنة عن الدين، ومثل هذا التعايش السلميّ يؤسس لطبيعة الدين في الحياة الإنسانية، وهذا مقصد من مقاصد التعايش بين المسلمين وغيرهم.

فالتعايش مع أهل العلم من غير المسلمين يفتح القلوب والعقول لهذا الدين، وربما كان ذلك مدعاة لدخولهم في الإسلام، وربما قرأ الكثير منّا عن قصص لأُناس دخلوا في الإسلام؛ بسبب سلوك المسلمين مع مخالفيهم في أوروبا وغيرها. فالإسلام بالتعايش السلمي إنما هو فكرة تهوي إليها العقول وتسكن إليها القلوب.

ولا يتأتَّى ذلك بلا حوار فاعل مثمر؛ فالحوار الإيجابي المنشود بين المخالفين "قوة وسلاح من أسلحة السجال الثقافي والمعركة الحضارية، وهو وسيلة ناجحة من وسائل الدفاع عن المصالح العليا للأمة، وشرح قضاياها، وإبراز اهتماماتها، وتبليغ رسالتها، وإسماع صوتها، وإظهار حقيقتها، وكسب الأنصار لها، وجلب المنافع إليها، ودرء المفاسد عنها"(٢).

(١) سنن الترمذي: أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم (٢٤٨٥)، وقال عنه الترمذي: حديث صحيح.

(٢) الحوار من أجل التعايش: ص١٥، ١٦ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

المقصد الثاني:

تحقيق الوحدة وحصار العداوات الداخلية والخارجية

وهذا مقصدٌ آخر من مقاصد التعايش؛ يقطع على أعداء الدولة أي طريق للإفساد، ويُضـــيّق عليهم سُـــبُل التفرقة بين أبناء المجتمع الواحد. وقد حدث في زمن النبوة أن حاول اليهود بالدّاخل إفساد علاقات التعايش والمحبة بين الأوس والخزرج؛ حيث يحكي لنا ابن سـيد الناس –رحمه الله– في كتابه "عيون الأثر" شـيئًا من هذا، فيقول: "... مرَّ شاس بن قيس وكان شيخا قد عسا[1]، عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه ما رأى من أُلْفتهم وجماعتهم بعد ما كان بينهم من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[2] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر فتى شـــابا من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث وما كان فيه، ... ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا، حتى تواثب رجلان على الرّكب، فتقاولا، وغضب الفريقان جميعا وتواعدوا بالسلاح...

وبلغ ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصـــحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشـــر المســـلمين: الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسـلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واســـتنقذكم من الكفر، وألّف به بينكم»؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشـــيطان وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج، ثم انصرفوا مع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فأنزل الله في شـاس بن قيس: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ

(١) أي: كبُر. وهو رجل من اليهود امتلأ قلبه غلا وحسدًا على المسلمين في المدينة.

(٢) وهو الاسم الذي كان يُدعَى به الأوس والخزرج.

سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩]"[١].

ويظهر من تلك الرواية مدى أهمية التعايش وأثر وحدة الصف المجتمعي في حصار الشائعات وتدمير العداوات وتأمين المجتمعات.

حتى أكّد غير واحد من علماء الأمّة وجوب التزام المسلمين بالدفاع عن إخوانهم المواطنين المخالفين، يقول الإمام القراقي في الفروق: (... فمن اعتدى عليهم -أي: غير المسلمين- ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وذمة دين الإسلام.. ثم يقرِّر قائلا: وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة وحكى في ذلك إجماع الأمة... ثم يعلق الإمام القرافي بقوله: "فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم)[٢] وهكذا لا تتحقق الوحدة إلا بالتعايش!

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المُتَوَفَّى: ٧٣٤هـ)، ج١، ص٢٤٧، ط١/ ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م، دار القلم- بيروت.

(٢) أنوار البروق في أنواء الفروق: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المُتَوَفَّى: ٦٨٤هـ)، ج٣، ص١٤، ط. عالم الكتب (بدون).

المقصد الثالث:

تحقيق التنمية الشاملة والريادة الحضارية

إنّ الناظر إلى ما أحدثته الأُلفة الاجتماعية بين أبناء مجتمع المدينة المنورة في بداية نشأتها، يراها قد شقّت طريقها نحو الريادة الصناعية والتجارية، فمن المعلوم أن المجتمعات المستقرّة تستطيع البناء وبلوغ الأُفق في التحضر والريادة الصناعية والاقتصادية، أما المجتمعات المتناحرة فإنها لا تقوى على بناء حضارة.

وحين استقرَّت دولة المدينة بمبدأ التعايش الشامل، وتعامل أفراد المجتمع معاملة الإنسان لأخيه الإنسان، أقام النبي ﷺ السوق التجاري للمسلمين ولغيرهم؛ ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في سننه، أنّ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَهَبَ إِلَى سُوقِ النَّبِيطِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: "لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ" ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى سُوقٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: "لَيْسَ هَذَا لَكُمْ بِسُوقٍ" ثُمَّ رَجَعَ إِلَى هَذَا السُّوقِ، فَطَافَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُنْتَقَصَنَّ وَلَا يُضْرَبَنَّ عَلَيْهِ خَرَاجٌ"[(١)]، وزادت المعاملات التجارية على طرق التجارة المحورية المتّصلة بالمدينة، وتعدّدت الحرف والمهن والصناعات في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلّم[(٢)].

وهذا يعني أن التعايش السلميّ الذي أسَّسه الرسول -صلى الله عليه وسلّم- في المدينة أتاحَ الفرصة للزّراع والتُّجّار والصُّنّاع في مجالات عديدة أن يجتهدوا وأن يعملوا، ومن ثمّ ترقى الدولة وتزدهر، ويصير لها كلمة مسموعة بين الدول.

(١) سنن ابن ماجه: أبواب التجارات، بَابُ الْأَسْوَاقِ وَدُخُولِهَا، حديث رقم (٢٢٣٣) وقال عنه شعيب الأرنؤوط: ضعيف.

(٢) يراجع في ذلك: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)، والتراتيب الإدارية: محمد عبدالحي الكتاني، ط٢، دار الأرقم، بيروت- لبنان (بدون تاريخ)، والاقتصاد الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: محسن خليل، ط. دار الكتب العربية، العراق: ١٩٨٨م.

وحتى ندلل عمليا على نهضـــة المدينة وعظيم ثرواتها، فتلك هي الثروة الحيوانية، التي حدث معها تقدم للدولة عجيب في زيادة عدد الخيول واســتجلابها لأرض المدينة، "... وقد صـارت لها سـوق خاصـة بالمدينة؛ كان بنو سـليم المشـهورون باقتناء الخيل يجلبونها إليها، وأصـــبح يطلق على هذه الســـوق بقيع الخيل. وقد ازدادت ثروة المدينة الحيوانية بالتدريج... حتى لقد بلغ عدد الخيول في جيش المدينة عند فتح مكة سنة ٨هـ ألفي فرس، كان الأنصـار يملكون منها خمسـمائة فرس ويملك المهاجرون ثلاثين فرسًـا والباقي تملكه القبائل التي والت المدينة، وانضـــمت إليها، وبلغ ما اســـتطاع أن يمد به رجل واحد من المسـلمين –هو عثمان بن عفان رضـي الله عنه– جيش تبوك تسـعمائة وخمســين بعيرًا وخمســين فرسًــا؛ الأمر الذي يقطع بنمو الثروة الحيوانية في يثرب نموًّا كبيرًا بعد الهجرة النبوية"[١]. كما تدلّل وثيقة المدينة على ذلك؛ ".... فلقد أســـهمَ الكثير من اليهود والنصـــارى بالمدينة في رفع الراية الحضـــارية للدولة الناشـــئة، ولم يمنع اختلافهم في الدين من المشاركة البناءة في الرقي الحضاري للدولة[٢].

ومن هنا فإنَّ التعايش السـلمي يحقق مقصـد الرقيّ الحضـاري، وليراجع القارئ ما وصـــلت إليه المدينة في زمن النبوة الأولى وقبل الانفتاح الثقافي والعمراني للدولة؛ فلقد ارتقت المدينة بنهضتها الزراعية والاقتصادية الشاملة، وتمتَّع بها المسلم وغير المسلم، وقدّم النظام الاقتصـادي في دولة الإسـلام نموذجًا راقيا عن مجتمع تسـوده المسـاواة، وتشيع فيه التنمية والإزدهار.

(١) ينظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: للمؤلف أحمد إبراهيم الشـريف، ص٢٩٧، دار الفكر العربي (بدون).

(٢) الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة: محمد زكريا النداف، ص٤٠٠٢، ط١/ ٢٠٠٦م، دار القلم– دمشق.

المقصد الرابع:

إقامة العدل وتحقيق المساواة

بين أبناء المجتمع الواحد

إنَّ البشرية اليوم بحاجة ماسة إلى إقرار مبادئ العدل، وألا تكيل بمكاييل متعددة، ولن يُرفع الظلم عن كواهل المظلومين إلا إذا صار العدل أساسًا في التعاملات حكمًا وقضاء وسمتًا للبيئة والمجتمع، "وإذا كان لكل دين سمة يتسم بها، فسمة الإسلام هي العدل، وهو شعاره وخاصيته، والعدالة هي الميزان المستقيم الذي يحدد العلاقات بين الناس، وهي القسطاس المستقيم الذي به توزّع الحقوق، وبه تُحمى الحقوق، وبه ينتظم الوجود الإنساني"[(١)].

وكانت مقاصد الشريعة الإسلامية تتعانق مع مقاصد ثقافة التعايش بين البشر، فكان إقرار العدل منهجا ودستورا للدولة الإسلامية، وكانت تُقام العقوبات على مستحقيها مهما كانت درجتهم أو طبقتهم؛ فالناس سواسية أمام الدين والقانون، وليس في مجتمع المدينة المنورة مَن يجري في عروقه دمٌ مقدّس.

وقد رأينا نموذجًا عمليّا يصدّق هذا المقصد (العدل)، فحين جاء أسامة –الحِب بن الحبّ– ليشفع للمرأة المخزومية التي سرقت، كان ردّ الحاكم القدوة قاسيًا، شافيًا.. ويروي لنا الإمام البخاري في صحيحه، موقف النبيّ ﷺ من هذا التصرّف، وجمع المسلمين وخطب فيهم، وقال لأسامة: "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"[(٢)] وقد

(١) العلاقات الدولية في الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة، ص٣٥، ط. دار الفكر العربي– مصر (بدون).

(٢) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم (٣٤٧٥).

وصـــل عدل النبيّ ﷺ مع مخالفيه حدًّا يجعلنا نفخر بهذا الدين؛ فلقد نزلت آيات كريمة في كتاب الله تعالى، تدعونا للعدل مع المخالفين، وإعادة الحق إليهم، وألا نُجامِل على حساب الدين، حتى لو كان الحق على مسلم من المسلمين. ففي القصة المشهورة[١] أن رجلا من غير المسلمين، اتّهم بسرقة درع لمسلم من المسلمين، ووصل الأمر للرسول ﷺ، وبدأ يستقصي النبيُّ ﷺ الأمر.. وأصل القصة أن قتادة بن النعمان كان صاحب درع حربيّ، وخاف عليه، وأعطاه أمانة ليهوديّ، يســـمَّى زيد أو لبيد[٢]، فســـرق رجل مسلم، يُدعَى طُعمة بن أبيرق أو أبيريق[٣]– الدِّرع، واتهم اليهوديّ بسرقة الدرع، إلا أنّ الأمر بدأ ينتشر، وخشى المسلمون من وصول الخبر إلى الرسول ﷺ، وانكشاف أمر السرقة التي قام بها المسلم، وتعاظم الأمر في نفوس قوم السارق، فأرادوا من رسول الله ﷺ أن يحكم ضد اليهودي؛ حتى لا تكون سُبّة في حياة المسلمين، وقبل اتخاذ القرار، نزل القرآن بالقول الفصـــل، بتبرئة اليهودي وإعادة الحق إليه، وعدم مجاملة المســـلمين على حســـاب الحق،... فنزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النســـاء: ١٠٥] فلما نزل القرآن أتى رســـول الله ﷺ بالســـلاح فردَّه إلى رفاعة أو قتادة ....[٤]. وظهر الحق ونزل ما يقارب

(١) والتي وردت في بعض كتب السير، وعند بعض المفسرين، كما وردت في بعض كتب السنة، كما رواها الترمذي، واختلفوا في بعض أسماء أبطال هذه القصة، لكنها ذات مغزى واضح في رد الحق لأهله ماديا ومعنويا، وعدم التعرض لظلم غير مسلم، لمجرد أنه غير مسلم.

(٢) اختلفت الروايات في اسم اليهودي المظلوم.

(٣) بنو أبيرق قوم من أهل المدينة، اشتهر عنهم النفاق والفقر والفاقة.

(٤) سنن الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم (٣٠٣٦)، وقال عنه الشيخ شاكر في التحقيق: (حسن).

التسع آيات في كتاب الله تعالى، نتلوها إلى يوم الناس، وستظل تُقرأ إلى قيام الساعة؛ تأكيدًا لقيمة العدل مع المخالفين..

ويعدّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٧ – ١٠٩]. توجيهًا ربانيًّا من المولى العدل الكريم لنبيه المصطفى ﷺ بألا يُدافع عن الذين يختانون أنفسهم ولو كانوا مسلمين، وفي ذلك عدل بإعادة الحق لأهله ولو كانوا على غير الإسلام. إنَّه نموذج عمليّ على أثر العدل في إقامة تعايش سلميّ بين الناس، وما كان المجتمع ليستقر ويسكن ويهدأ لولا العدل الذي أحاط به وبجميع أفراده من كافة جوانبه.

المقصد الخامس:

تحقيق الأمان العقدي والحرية الفكرية

لقد سبق الإسلام الدنيا كلها بإقرار التعددية الدينية والمذهبية والفكرية والثقافية؛ حيث يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد أكّدت وثيقة المدينة على أنّ لليهود دينهم، فلهم الحرية في تعبداتهم ومعتقداتهم، وتحقيق تلك الحرية مقصد في غاية الأهمية من مقاصد التعايش السلميّ، وهو طموح وأُمنية جمعيات حقوق الإنسان في العالم[(١)]، ولهم أن ينظروا في مجتمع دولة المدينة، ويتعلّموا كيف حقق النبيّ –صلى الله عليه وسلّم– التعايش في مجتمع مختلف الطبقات والمعتقدات والأفكار والتوجهات والأيدلوجيات..

فها هو مجتمع المدينة تمتلأ جنباته بأصحاب الديانات المختلفة، ولهم معابدهم ودور عبادتهم، فها هم اليهود لهم حصونهم الخاصة، وها هم يمارسون طقوسهم التعبدية دونما حرج، والوثنيون على ما هم عليه من عبودية أصنامهم، أما الإسلام فلم يثبت أنه أجبر أحدًا على الدخول فيه، ولم يُكره أتباع الدين واحدًا على ترك معتقده الذي يعتقده –كما فعل مشركو قريش بالمسلمين المستضعفين زمنًا– ولم يحدث مرة أن

(١) إنّ على هؤلاء الذين يتزعمون حركات حقوق الإنسان في العالَم أن يفتشوا عندهم أولا عن الاضطهاد القائم على الأقليات المسلمة في العالم –اليوم– ويقارنوا ذلك بما يفعله المسلمون مع إخوانهم من غير المسلمين؛ فهم مواطنون مثلهم، ولا نسمع في بلادنا عن أقليات وما شابه، فالكل له حقوقه وعليه واجباته، والكل يتعامل مع الكل في طعام و شراب وتجارة و سفر وارتحال، والكل يعيش في أمن وأمان.. أين هؤلاء من تعرّض الأقليات المسلمة لهضم أبسط حقوقهم في ممارسة شعائرهم، من تعبد لله تعالى في المساجد، وارتداء النساء للحجاب الشرعي دون الاعتداء عليهنّ، وأين هم من تعرّض السفهاء في بعض البلدان – بالاستهزاء والسخرية– لمقام سيدنا وقائدنا محمد بن عبدالله –صلى الله عليه وسلّم– في مجلاتهم وإعلامهم المختلف؟!!

قُتل غير مســـلم لمجرد أنه غير مســـلم، وما ثبت من أحداث قتل يهوديٍّ معين، مثل كعب بن الأشرف، إنما كان قتلا مدنيا ودستوريا بسبب نقض العهد والغدر الذي سبّبه للدولة، فاســتحق القتل بتهمة الخيانة العُظمى، وهو أمر لا تُنكره الدول والشــعوب؛ بل تقره ولا زال يُعمل به إلى يوم الناس هذا.

وما كانت تلك الحرية –لأصـــحاب الديانات المختلفة والأفكار المتنوعة– لتشـــيع وتنتشـــر لولا التعايش الســـلمي القائم على الحوار وقبول المخالِف والتعامل معه وفقا للمشتركات الإنسانية من وطن وإنسانية تجمع الجميع، ويكفي (لكم دينكم ولي دين).

المقصد السادس:

تحقيق الأمن المجتمعي لأفراد الدولة

يعدّ من أهم مقاصد التعايش السلمي تحقيق أمن الأفراد وسلامتهم، فضلا عن تحقيق أمن الدولة وتأمين حدودها، ولقد انتبه غير واحد من علماء السياسة الشرعية قديمًا –من علماء المسلمين– لهذا المقصد، بل جعلوه قاعدة من قواعد صلاح الدنيا وانتظام عمرانها. يقول الإمام الماوردي –في أدب الدنيا والدين–: "وأما القاعدة الرابعة: فهي أَمْنٌ عام تطمئنّ إليه النّفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف. فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة. وقد قال بعض الحكماء، الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم[1] وانتظام جملتهم؛ لأنَّ الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدل"[2].

وعلى هذا فإنَّ تحقيق الأمن المجتمعي مرتبط بمدى تحقق التعايش بين أفراد المجتمع الواحد؛ لأنه عند انعدام التعايش فلا شك أن الصراع سيكون الثمرة والنتيجة، ومن ثمّ فلا أمن ولا أمان، لن يأمن أحد لا على نفسه ولا على أهله ولا على دينه ولا على ما يملك من هذه الحياة، فضلا عن عدم القدرة على ممارسة الشعائر الذاتية والتعبدية.

(١) تعني استقامة الاعوجاج.

(٢) أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المُتَوَفَّى: ٤٥٠هـ)، ص١٤٢، دار مكتبة الحياة: ١٩٨٦م، (بدون رقم الطبعة).

المقصد السابع:

عمارة الأرض وبناء الأوطان

إنَّ انتشـــار ثقافة التعايش بين أبناء الوطن الواحد مدعاة للبناء والتعمير، وتحقيق العمران المنشـــود؛ فإذا كان من أرقى غايات الخلق والإيجاد، كما ثبت في قول الحق جلّ شـأنه وتعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فإنّه لن يتحقق العمران إلا بالتعاون المشـــترك بين أبناء الوطن الواحد؛ حيث يوفر هذا التعاون الكثير من الأوقات والجهود والأموال، وبالتعايش الســـلمي تعمر الأرض وتُبنى الأوطان. فإن بناء البلدان يحتاج تعاونًا وثيقًا بين أبناء المجتمع المتعايشـــين المتكاملين، ولا بناء ولا عمران بلا تعايش!

وبنظرة يسيرة في مجتمع المدينة المنورة نكتشف أنّ تشاركًا بين المسلمين وغيرهم قد حدث في بناء الســـوق التجاري للمدينة والتعاون التجاري، كما اشـــترك الجميع في الدفاع المشترك ضد أعداء الدولة –وفقا لوثيقة المدينة ودستورها– "فاليهود ينفقون من أموالهم مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن بينهم النصـــر على من دهم يثرب"[(١)]، وهذا أصل يثبت أن من مقاصد التعايش عمارة الوطن، بالدفاع عنه، وحماية حدوده، فعلى أبناء الوطن جميعا أن يدافعوا عن الدولة، فهي وطن لجميع ساكنيها..

وتتعدد مقومات بناء الأوطان وتختلف حسب المراحل الزمنية التي يمرّ بها الوطن، فقد يكون من بناء الوطن الصـمت والسـكوت عن نشـر الشـائعات، وقد يكون الدفاع المشترك ضد أعداء الخارج، وقد يكون بناء الوطن في حفظه من اندلاع حرب طائفية في الداخل، ومن هنا كانت وثيقة المدينة دافعًا لتجريم وتحريم نشـــوب أي حرب داخل

(١) سيأتي تفصيل هذه المبادئ الدستورية في المبحث الأخير من هذا البحث.

الوطن، ومن تلك البنود: (وإن يثرب حرام جوفُهَا لأهل هذه الصحيفة) ومن هنا يظهر أهمية التعايش في تحقيق العمارة للدولة والدفاع المشترك عن الوطن.

المقصد الثامن:

تنشيط مبدأ التكافل الاقتصادي والاجتماعي

لقد أضحت المدينة المنورة –بفضل الله تعالى– صورة مصغرة للأمة التي ينبغي أن تكون! فلقد بدأ النبي –صلى الله عليه وسلّم– دولته بإرساء أركان الأخوة الإنسانية بين أبناء المجتمع، يساند الأخ أخاه، ويقف معه في شدته، ويعمل على تفريج كُربته، كما حدث بين المهاجرين والأنصار، وكما راعى النبيّ ذلك في انتشال الفقراء من فقرهم، ومساندة المحتاجين، ودلالتهم على أساليب العفة ووسائلها. ولنا أن ننظر في مبادئ وثيقة المدينة، والتي منها: (وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقل)[2] كما ورد في بنود وثيقة المدينة ما يضمن الإبقاء على صورة التكافل الاجتماعي بين العائلات عن طريق صلة الأرحام التي تربطهم بالقبيلة، وبالدولة في ذات الوقت، وكل ذلك من شأنه تعزيز التعايش السلمي بين المواطنين في الدولة الناشئة.

وأخيرًا: فإنّ نُشدان الإسلام للتعايش السلمي بين أبناء المجتمع ليس أمرا طارئا أو استثنائيا أو طريقًا هامشيًّا؛ بل هو أصل في صُلب رسالة الإسلام التي تبتغي هداية الناس ودلالتهم على الخير.

---

(١) أي: مثقلا بالديون.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المُتَوَفَّى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي، ج١، ص٥٠١: ٥٠٤، ط٢/ ١٣٧٥هـ= ١٩٥٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

فالتعايش في الإسلام له مقاصده وغاياته المنشودة، -وقد سبق بيان بعضها- وهي نذر يسير من مقاصد كثيرة، يضيق المقام للاستفاضة فيها. وعلى الرغم من حلاوة ولذة التعايش السلمي، إلا أنّ طريق الإصلاح يعتريه بعض التحديات والعراقيل.

ولذا يأتي المبحث التالي مباشرةً للتركيز على أهم تلك التحديات التي واجهت إرساء قواعد التعايش السلميّ بين أبناء الوطن، وكيف تعامل معها رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلّم- في دولة المدينة المنورة؟

المبحث الثالث

تحديات في طريق التعايش السلمي وسُبُل المواجهة

التحدّي الأول : الحسد والغيرة في قلوب أعداء الإسلام

التحدّي الثاني : الزَّعامات المُنافِسَة للقيادة الرشيدة والدولة الناشئة

التحدّي الثالث : العصبية المقيتة

التحدّي الرابع : الشائعات والأراجيف المدمرة

التحدّي الخامس : نقض العهود والمواثيق الدستورية وتعدّد الخيانات

التحدّي السادس : الفهم الخاطئ لمبدأ التعايش السلميّ

المبحث الثالث:

تحديات في طريق التعايش السلميّ وسُبُل المواجهة

من المعلوم أنّ من يسعى للإصلاح سيقابل الكثير من التحديات والعراقيل؛ فأهل الباطل لا يهدؤون ولا يسكتون عن عرقلة مسيرة الإصلاح، وتلك سنة الله الكونية في الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وكلما زادت قوة الدولة، وعزيمة قادتها، كلما اشتدت شراسة الباطل وأهله!!

ولقد عانى رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- كما عانى أصحابه الأطهار من تحديات واجهت نشأة الدولة الأولى -المدينة المنورة-، غير أنّ النبي الأكرم بحكمته استطاع التغلب على تلك التحديات، وحتى تكتمل الفكرة البحثية فإلى بيان عدد من تلك التحديات التي واجهت تطبيق مبدأ التعايش السلمي في مجتمع المدينة، وبيان السبل والوسائل التي اتّخذها الرسول -صلى الله عليه وسلّم- للمواجهة، وسبل الإفادة منها واقعيًّا.

التحدي الأول:

الحَسد والغيرة في قلوب أعداء الإسلام

فحين تستقر الدولة وتبدأ النهضة الحضارية لها، لا بد من ظهور حسد الحاسدين ومكر الماكرين، وقد حدث ذلك في دولة المدينة الناشـــئة في زمن النبوّة؛ فلقد وقف بعض المحســـوبين على الإســـلام ظاهريًّا أمام وحدة الصـــفِّ المجتمعي وغاظهم ما وصـــلت إليه قلوب أتباع الرســـول –عليه الصـــلاة والســـلام–، ولم يرتضـــوا أن يكون للمســـلمين عزة ولا منعة ولا دولة، فقفزت غيْرتهم وطفت على الســـطح المجتمعي بمكر ودهاء.

فهذا عبدالله بن أبي بن سلول –رأس المنافقين يومئذ– حاول أن يُسمِع المتعايشين سِـلْميًّا كلمات تخالف مبدأ وثقافة التعايش المنشـود، حين أظهر حقده الدفين ضـد رمز الدولة وضد المسلمين، وقد حكت لنا سورة المنافقون هذا الموقف ونقلت إلينا طرفا من كلماتهم الدنيئة؛ فلقد ورد في القرآن قول الحق: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، غير أنّ رجالات الأوس والخزرج –الأنصار الكرام البررة– قاموا باحتواء الموقف بذكاء، واسـتطاعوا إخماد هذه الغيرة القاتلة، وإطفاء نيران الحسـد القاتل، وحينها هدأت الأمور في الدولة، وعادت المدينة لحالتها الطبيعية من التعايش السلميّ.

ولعلَّ من المناسـب أن ننظر في تلك الرواية التي قصّـها علينا الإمام البخاري في صـــحيحه من حديث جابر بْن عَبْدِاللَّهِ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حيث يَقُولُ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ

فَكَسَعَ[1] رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**» قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، **وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[2].

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. التغافل من القيادة أحيانًا؛ حتى لا تتعدد جبهات الصراع، خاصة مع بداية إنشاء الدولة والرغبة في استقرارها وهدوئها.

٢. إظهار الصورة الإيجابية لحب الناس لبعضهم، وإظهار رموز الدولة وقادتها في حالة تعايش معلَن مع الناس في أحوالهم المختلفة.

٣. التركيز على أولويات المرحلة في بناء الدولة، والسعي لرأب الصدع دائمًا.

٤. الثقة في القيادة الرشيدة وإعلان المحبة لها وافتدائها بالنفس والروح ما أُتيح ذلك؛ وفي ذلك أكبر الأثر على نفسية هؤلاء المفسدين.

(١) مِنَ الكَسْع: وَهُوَ ضَرْب الدُّبُر. وَفِي حَدِيثِ الْحُدَيْبِيَةِ «وعَلِيٌّ يَكْسَعُها بِقَائِمِ السَّيف» أَيْ يَضْرِبُها مِنْ أَسْفَل. [النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ج٤، ص١٧٣ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)].

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، حديث رقم (٤٩٠٧).

٥. مراعاة فقه الأولويات عند حلول المشكلات؛ فقد نظر النبي الحبيب -صلى الله عليه وسلم- إلى مآلات الأمور إذا قتل هذا المنافق، وتأنَّى في اتخاذ القرار، وهداه الله تعالى إلى التجاهل حينًا؛ حتى يُحدث الله أمرا كان مفعولا.

التحدي الثاني:

الزَّعامات المُنافِسَة للقيادة الرشيدة والدولة الناشئة

إنّ من بين أخطر التحديات التي واجهت تطبيق مبدأ التعايش في دولة المدينة: وجود الزعامات المنافِسَة، فحين هاجر النبي -صلى الله عليه وسلّم- إلى المدينة، كانت زعامات كثيرة -كأبي عامر الراهب وابن سلول- تجهز نفسها لقيادة يثرب، وغاظها كثيرًا أن فقدت كل ما كان في طموحاتها وأحلامها المستقبلية.

فأمّا رأس النفاق وأستاذ المنافقين عبدالله بن أُبيّ بن سلول، كان يُمنِّي نفسه بزعامة يثرب وأهلها، وأقام تكتلات سياسية مع اليهود ومع مشركي العرب الوثنيين حينها، واستعد لتقلد الأمور في يثرب، وفجأة ظهر نور النبيّ محمد -صلى الله عليه وسلّم- على المدينة، فبدّد أحلامه، وأمات طموحاته، وأرّق مضجعه.. فاشتدت شراسته، وامتلأ صدره حقدًا وحسدًا وبغيًا على الإسلام وأهله.

ويحكي لنا الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه هذا الحدث الذي يُظهر سبب التنافسية الشرسة مع الرسول -صلى الله عليه وسلّم- بعد مَقْدِمِهِ إلى المدينة، ففي الحديث: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث قبل وقعة بدر، حتى مرَّ بمجلس فيه عبدالله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يُسلم، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن

رواحة، فلما غشـــيت المجلس عجاجة الدابة، خمَّر عبدالله بن أُبَيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبّروا علينا، فسلّم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عليهم، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن..

فقال عبدالله بن أُبَيّ بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلســـنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصـــص عليه، فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا...

ثمّ ركب النبي –صلى الله عليه وسلم– دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: "يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب؟ - يريد عبدالله بن أُبَيّ - قال: كذا وكذا"، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، اعف عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، **لقد اصـــطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت**، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبيّ – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه يعفون عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، ...."[(١)]. فهذه رواية واضحة تبين لنا سبب غل وحقد وتنافس

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، حديث رقم (٤٥٦٦). فابن أُبيّ قد نظّم له القوم الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن، ورأى أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد سلبه ملكا عظيما، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مُصِرًّا على النفاق [ينظر: عيون الأثر لابن سيد الناس: ج١، ص٢٥٥ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)].

ابن سلول لرسول الله –صلى الله عليه وسلّم–، فظلّ على كرهه للإسلام، حتى بعد أن أعلن وأظهر إسلامه صوريا وظاهرًا..

وإذا أردنا أن نعدّد ما فعلته تلك الزعامات المنافسة للدولة ورموزها، من قادة النفاق، لأعددنا الكثير والكثير، من التشكيك في وحدة الصف المجتمعي، ومحاولة إيقاع الفتن بين المتحابين فيه، فضلا عن محاولات إضعاف القوة العسكرية للمسلمين متى أُتيحت الفرصة، إضافة إلى نُصرة الخونة وأعداء الدولة –كما حدث في نصرة ابن سلول لبني قينقاع–، وكذا محاولات قذف الأعراض لأُمّ المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–، وقد حاولت تلك الزعامات إيغار صدور الأنصار يوم حُنين؛ حيث نشر أحد المنافقين – وقتئذ– بأنَّ العطايا التي أعطاها الرسول للمهاجرين ما أُريد بها وجه الله، حتى وجد الأنصار في أنفسهم من ذلك شيئًا.. ورغم كل هذه المحاولات لقادة النفاق ولزعامات الضلال في المدينة، بقي المجتمع وساد فيه التعايش السلمي بروح المحبة والأخوة، وعولجت مشكلات الحاضر بأسلوب حكيم لقائد الدولة؛ رغبة في صناعة مستقبل باهر لجميع أبناء الوطن الواحد.. "والمجتمع الإسلامي اليقظ كالمحيط؛ مهما تلق فيه يغرق، فمَن هم المنافقون بِخِسّتِهم وضعفهم، وقلة حيلتهم، في بيئة قوية يقظة، يتحلل فيها كل صخرة ليس لها بالرواسي جذر، ولا لها مع التيار الوضيء إرادة"[(١)].

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. تنقية المجتمع سريعًا من مقولات السوء ووشايات ضعفاء البصيرة.

٢. تجنيد أبناء المجتمع بردّ كيد أعدائه، وتدريبهم على ذلك عقليًا وسلوكيًّا.

(١) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني "مناهجها وغاياتها": أ.د/ رؤوف شلبي، ص٣٣٧، ط١/ ١٤٣٧هـ= ٢٠١٦م، دار الآثار، مصر.

٣. تطييب الخواطر[١] والتذكرة بفضل الله تعالى على العباد والبلاد.

٤. توظيف الأحداث التي ابتدعها المُنافسون المتآمرون، في مصلحة الوطن وأهله.

٥. تحييد الزعامات الضعيفة وإبعادها عن مسرح الأحداث؛ للتفرغ في مواجهة الأشرس والأكثر تأثيرًا على أتباعه من الزعامات المضلّلة.

٦. حلحلة الأوضاع التنافسية بتشتيت هؤلاء بإبراز زعامات جديدة صالحة.

التحدي الثالث:

العصبية المقيتة

لقد كان من أخطر التحديات التي واجهت دولة المدينة حين نشأتها، وكانت سببًا في تعطيل مسيرة الإصلاح: العصبية والروح القبليّة، ولم تكن مهمة نبينا -صلى الله عليه وسلّم- سهلة في بداية الدولة؛ (فلقد سادَ المدينةَ روحُ القبليّة، وتأصَّلت في أبنائها وقت خصوماتهم العنيفة التي نشبت بينهم فزادت من صلابة التكتلات القبلية، وقوّت شعور الفرد بوجوب تمسكه بقبيلته على حساب الدولة؛ لأن القبيلة ستحميه وتدافع عنه -وفقا لنظرته- فضلا عن الاعتداد بالفرديّة واحتكار الحقيقة، ومن ثم لن يخضع لأي سلطة سوى سلطة القبيلة...)[٢].

وعلى الرَّغم من أنّ الدين جاء ليعالج إشكالية العصبية، إلا أنّ سكان الدولة من أوس وخزرج ويهود ووثنيين لا زالت العصبية تحكم عواطفهم وتصرفاتهم.. حتى بعد استيطان الإسلام في قلوب رجالات الأوس والخزرج، إلا أنّ العصبية استعرت نيرانها

(١) إشارة إلى تطييب خواطر الأنصار يوم حُنين، وقد بكت عيونهم واخضلت لحاهم من أثر ذلك، ودعا لهم الرسول بدعواته التي ألهبت مشاعرهم وأرضت نفوسهم وسكّنت أفئدتهم، وأُعلنت ملحمة الحب للنبي والدين معًا.

(٢) الدولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم: صالح أحمد العليّ، ج١، ص٩٩ (بتصرف)، ط. المجمع العلمي العراقي: ١٩٨٨م.

يومًا، وكادت أن تُدمِّر ما بناه النبيّ -صـــلى الله عليه وســلّم- أول مقدمه إلى المدينة المنورة، وكان لعقلية القائد الحكيم أكبر الأثر في إطفاء نيران العصـــبية ورد القلوب والعقول إلى سـلطان الدين.. ففي قصـة شـاس بن قيس -اليهوديّ- الذي أشـعل فتيل العصـــبية المقيتة بين المســلمين يومها، ما يدلل على عظيم حكمة الرســول ﷺ؛ فلقد حدث التنازع بينهم وتنادوا بالســلاح، غير أنه لمّا وصــل الأمر لسـيدنا النبي ﷺ خرج إليهم مسرعًا، وقال: يا معشـــر المسلمين: الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف به بينكم»؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشـــيطان وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ[1]

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. فضل استخدام الحوار في الدعوة والتبليغ وتصحيح التصورات والتصرفات.
٢. بيان ضـــرورة التعجّل بنزع فتيل الأزمات الاجتماعية وقت وقوعها؛ حتى لا تستفحل في القلوب، ويستغلها أعداء الوطن، رغبة في إفساده ونقض عُراه.
٣. بيان حكمة القيادة وقت النزاعات الاجتماعية، بإعادة الجميع إلى حظيرة الإسلام وكمال تشريعاته وهديه الشريف.
٤. استخدام الخطاب العقلي والعاطفي في ردّ الناس -عند الخلاف- إلى الحق.
٥. ضـــرورة التذكرة بخطور الاســتجابة لكيد الشــيطان وجنوده من الإنس، وعظيم الأثر على الواقع المجتمعي، وأن اتباع العصـبية سـبيل لتدمير كل بناء، ونقض كل حلم وطموح.

(١) عيون الأثر: ج١، ص٢٤٧ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

التحدي الرابع:

الشائعات والأراجيف المدمرة

بنظرة يسيرة إلى بدايات نشأة دولة الإسلام في المدينة، وعندما استقرّت أوضاع المسلمين وتعايشوا مع بعضهم ومع غيرهم من غير المسلمين، بدأت حملات التشويه ومؤامرات الأراجيف المشؤومة تنهش في جسد الدولة.

- فاتجه المرجفون حينًا إلى تشويه التشريعات الإسلامية والتشكيك في الأحكام والقضايا الدينية، كمثل التشكيك في أمر تحويل القبلة، وإحداث البلبلة في صدور المؤمنين من أنّ الله تعالى لن يقبل صلاة من ماتوا، غير أنّ الله فضحهم وأظهر أنه لن يضيع صلاة من صلوا ثم ماتوا على القبلة السابقة. "... وبتحويل القبلة، وتوجه المسلمين إلى بيت الله بمكة، تمت المفاصلة التامة بين المسلمين واليهود، وتميز المسلمون بقبلتهم، فأخذ اليهود في إثارة الشبه والحقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه"[(١)].

كما أنّ الانتقال من قبلة بيت المقدس إلى قبلة الكعبة المشرفة مثار غيظ وحنق من اليهود واستنكار؛ حيث "كانوا- قبله- يؤمّلون في متابعة الرّسول عليه الصلاة والسلام لهم! ولعلّ أساس موادعتهم له ظنهم الإفادة منه، واستغلال أنصاره! فلمّا تميّز الإسلام بقبلته الجديدة امتلأت نفوسهم باليأس، ودفعتهم خيبة الرجاء إلى تشديد الحملة على الإسلام وتبييت السوء له. وقد أحبط القرآن -الكريم- حرب الجدل التي شنها اليهود إثر تغيير القبلة..."[(٢)]. فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: أ.د/ أحمد أحمد غلوش، ص٣٠٠، ط١/ ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالي، ص٢٥٤، ط١/ ١٤٢٧هـ، دار القلم- دمشق.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣].

- وها هم أولئك المرجفون يتجهون تارة أخرى نحو تشويه رمز الدولة متمثلا في شخصية امرأته وزوجه الصديقة -عائشة رضي الله عنها- كما وقع في حادثة الإفك[(١)]. فقد تسببت ألسنة تعفّنت بالمداد الأسود في قلقلة المجتمع الآمِن، وإحداث فجوة في تعايش المسلمين وغيرهم، وكثُر الكلام في عِرْض الرسول ﷺ وزوجه الحصان الرّزان -رضي الله عنها وأرضاها-، حتى نزل القرآن ببراءتها وإسكات الألسنة بعد فترة قاسية مرّت بها وبزوجها المصطفى ﷺ.
- فلم تكن رغبة المنافقين ولا اليهود ولا السفهاء في المدينة النيل من التشريعات الإسلامية -على ما بينهم وبينها من عداء- ولا النيل من عِرض النبي صلى الله عليه وسلّم فحسب؛ بل كان هدفهم الأسمى هو زعزعة الأمن المجتمعي لكل أبناء المجتمع، وضرب مبدأ التعايش السلمي في مقتل.. وقد أحدثت تلك الشائعات ضربًا من القلق والاضطرابات المجتمعية بالفعل!! إلا أنّ كل ضرر في باطنه

(١) يرجع في ذلك إلى صحيح البخاري: كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، حديث رقم (٢٦٦١)، السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٢٩٩ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)، الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج٢، ص٧٩، ط١/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المُتَوَفَّى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، ج٣، ص٣٠٦، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان: ١٣٩٥هـ= ١٩٧٦م، وعيون الأثر لابن سيد الناس: ج٢، ص١٣٤ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

منفعة، وبين طيات كل محنة منحة، وعقب كل شـــدة يأتي الفرج، ومن باطن الظلام يولد النور، فلقد نصـــر الله نبيه وأيّده بتأييده، وثبت الإيمان في القلوب أكثر، واستقرّت الدولة في جو من التعايش السلمي المُفرِح وقتئذ..

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. بيان الأدب العالي لعقلاء المجتمع، وحذرهم من أن يخوضـــوا فيما خاض فيه غيرُهُم؛ فطبيعة العاقل ألا يتسرّع بالقول في أمر بلا تثبّت أو دليل، وهذه وحدها تكفي للحفاظ على التعايش السلمي بين أبناء المجتمع.

٢. إظهار صـفة الرحمة النبوية في أنّه –صـلى الله عليه وسـلّم– لم يعامل اليهود بعنف ولا سـبَّب لهم أيّ أذى، بعد أن قالوا ما قالوا في شـأن تحويل القبلة؛ فرغم خلافهم وعدوانهم عاشـــوا آمنين تحت ظل رحمة النبي الكريم –عليه أفضـــل الصلاة وأتمّ التسليم–.

٣. ضرورة التؤدة في اتخاذ القرارات –خاصة عند الغضب والانفعال–؛ لأن العجلة في اتخاذ القرار –مهما كان الموضـــوع– خطر لا تُحمَد عُقباه، وربما يجني المجتمع من وراء ذلك التدمير والانهيار، فصبر النبيّ –صلى الله عليه وسلّم– وسكوت المهاجرين والأنصار، وتأني الجميع، حفظ المجتمع من أن يقع في نار الفرقة والدمار.

٤. قوى الشـر وقادة الظلام لا يهدؤون أبدًا عن إثارة الشـائعات والاضـطرابات في المجتمع، والحل الأمثل هو فضـحهم بهدوء وكشـف خباياهم بالأدلة أمام الناس. فقد كانت آيات القرآن الكريم في كلا الحادثيْن بلسما شافيا للصدور، وسببًا في طمأنة المتعايشـين بالمجتمع أنّ الله لن يخذلكم ولن يُضـيّعكم، فاصـبروا ورابطوا ولا تيأسوا ولا تعجلوا؛ فأنتم الأعلوْن إن كنتم مؤمنين.

٥. ظهور أدب الأتباع في التزامهم بقرار القيادة بالصمت وعدم الحديث في الأمر، حتى يُظهر الله الحقيقة ويُدافع عن عباده المؤمنين، فلقد أبهرت تلك الطاعة وأغاظت المتآمرين في الداخل والخارج، ومهّدت الطريق لتجاوز المحن مهما بلغ شررها وخطرها.. ولله الحمد والمِنّة.

التحدي الخامس:

نقض العهود والمواثيق الدستورية وتعدد الخيانات

وهذا تحدٍّ آخر!!

فإنّ تحقق التعايش في مجتمع مّا، يجعله أكثر استقرارًا، وحدوث مثل هذا الاستقرار يُقلق أعداء الداخل والخارج، وقد حدث في زمن النبوة –في دولة المدينة المنورة– محاولات من الخائنين لعرقلة مسيرة الإصلاح الاجتماعي في المدينة.

لقد خاف المنافقون واليهود من حالة التعايش السلمي الحادِثة في المدينة المنورة، فقاوموا هذا التعايش، وعملوا على خرْق كلّ العهود والمواثيق –كعادتهم–؛ لأن مع التعايش سينتشر الإسلام وتزدهر دولته تحت راية الرسول –صلى الله عليه وسلّم–، وهذا أمر يؤرّق أساتذة الحروب في العالَم، ويهدّد وجودهم القائم على إحداث الفرقة وإشاعة النزاع.

ومن نماذج نقض العهد وخرْق المواثيق:

١. خيانة كعب بن الأشرف الزعيم اليهودي[(١)] من أبرز تلك التحديات التي أرّقت المجتمع، واستغلّها المتآمرون قديما وحديثًا بإشاعة الشبهات ضد الدولة ورموزها

(١) انظر قصته في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، حديث رقم (٤٠٣٧). وكان كعب بن الأشرف شاعرا، وكان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش وكان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم استصلاحهم وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشد الأذى فأمر

وقادتها؛ فيوم أمر النبيّ –صلى الله عليه وسلّم– بقتل كعب بن الأشرف، قاموا يتقوّلون السوء على القرار السيادي القائم على حفظ الدولة وحمايتها من الخونة، وردّ عدوان ناقضي العهود في الداخل والخارج، و "إصرار –كعب– على إفساد المجتمع عسكريا وأخلاقيا صار أمرًا واضحًا، وإبقاؤه يتعارض مع منهجية بناء الدولة إسلاميا وإنسانيا، ويتعارض بقاؤه مع تكوين مجتمع نظيف صالح، فسلّط عليه النبي –صلى الله عليه وسلّم– من ينظفه من المجتمع الإسلامي الذي يعيش في كنفه، ويريد أن يلوّثه..."[(١)]. وعلى هذا فإنَّ شيوع مثل هذه السلوكيات السلبية –من نقض العهود والمواثيق وشيوع المؤامرات– في مجتمع تُؤْذِنُ بدماره وهلاكه، وعلى قادة الرأي التنبّه لهذا الخطر الداهم، فيعاجلونه بالعلاج ولا يتباطؤون في ذلك.

٢. ومن بين محاولات نقض العهود في مجتمع المدينة: محاولة المنافقين زعزعة الخطة العسكرية يوم أُحُد، وفي غيرها كذلك، بسحب الجند من الجيش وإحداث خلخلة كادت أن تدمر الجيش المسلم لولا عناية الله تعالى.

٣. ومن بين تلك المحاولات: نقض اليهود للعهود التي كانت في وثيقة المدينة، من الاتفاق على حماية الدولة، وعدم إجارة المجرمين ونصرتهم، بيد أنهم يوم الأحزاب خانوا، ويوم بني النضير خانوا، ويوم بني قينقاع خانوا وغدروا.. فأنَّى لهم الاستقرار؟!! ورغم كل هذه المحاولات أبَى الله تعالى إلا أن يحفظ هذه الدولة

الله رسوله والمسلمين بالصبر فلما أبى كعب أن ينزع عن أذاه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه.. [فتح الباري: ج٧، ص٣٣٧ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)]. ويعلق الشيخ الغزالي –رحمه الله– على قتل كعب بقوله: "لقد أجدت العصا حين أعيت الصيحة وبطل المقال، ولزم اليهود حدودهم فلم يتجرؤوا على المسلمين بسبّ، وظهر كأنّهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركا بعد اليوم" [فقه السيرة: ص٢٥١ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)].

(١) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني: د. رؤوف شلبي، ص٩١ (بتصرف)، (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

ويقيمها رغم كيد الكائدين ومكر الماكرين، وصـــدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ – ١٧].

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. دحض الشبهات المثارة حول الدين أولا بأول.

٢. البراعة السياسية في إدارة الملفات الشائكة وربطها بالمصلحة العامة.

٣. الثبات الإسلامي عند زلزلة الأفكار والتصرفات.

٤. استخدام القوة –أحيانا– في تنفيذ حكم الله في الخونة دون تردد؛ ففي ذلك إسكاتٌ لأصوات الحقد ونبرات الضغينة، وتخويف وترهيبٌ من نقض العهود والمواثيق.

٥. الســعي قُدُمًا في بناء الدولة، وعدم التراجع إلى الوراء أو الانشــغال المعطِّل عن الإنجاز لصالح البلاد والعباد.

التحدّي السادس:

الفهم الخاطئ لمبدأ التعايش السلميّ

إنه تحدّ يتعلق ببعض الفهوم الخاطئة لطبيعة التعايش[(١)]، حتى إن البعض تشـــدّد في ربط القضـية بمبدأ الولاء والبراء على سـبيل المثال، وقد اعتبر هذا الفريق أنّ الدين الحق هو ما يصـــل بالمرء إلى البراءة من المخالفين في العقيدة، وعدَّ ذلك أصـــلا من أصـــول الدين. والبعض اعتبر أنّ التعايش مع المخالفين صـــورة من صـــور النفاق

(١) وهذا التحدي أوردته هنا –وإن لم يكن له أدلة صريحة في الفترة المدنية– لبيان أنّ من الفهوم الخاطئة في واقعنا: الربط بين التعايش السلمي وما يُسمِّيه البعض بعقيدة (الولاء والبراء)، وهو أمر يحتاج إلى تفصيل وردّ، ولقد كان في مجتمع المدينة مَن يُحاوِل أن يسوّق للفهم الخاطئ لهذه القضية، كما فعل السفهاء يوم حُنين، وحاولوا إيصال فكرة خاطئة عن التعايش، و سوّقوا في نفوس بعض الأنصار بأنّ النبيّ – صلى الله عليه و سلّم– يُجامل أقاربه أو المهاجرين من أهل مكة على حساب الأنصار.. وحا شاه – عليه الصلاة والسلام– أن يفعل ذلك أو يُظن منه ذلك..

الاجتماعي،.... كما أنّ بعض المسلمين أساء فهم بعض النصوص والأدلّة الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ إما لسوء فهم المدلول اللغوي، أو غياب التصور التاريخي، أو عدم القدرة على فهم أسباب النزول في القرآن الكريم وأسباب الورود في الحديث النبوي الشريف. مجموعة من المفاهيم الخاطئة تعدّ بمثابة تحدّ جديد يواجه نشر ثقافة التعايش ومبدأ التسامح مع أهل الأديان الأخرى..

وقد نتج عن تلك الفهوم الخاطئة طريقة مُفزعة في الدعوة والإرشاد، وصلت بأدواتها إلى عقول الناس، فهيّجت فيهم روح الكراهية والبغض لغير المسلمين، وهو أسلوب لا يليق بعِظم رسالة الإسلام، ولا يتوافق مع النصوص الشرعية، كما يصطدم مع الواقع وتحقيق المصلحة العامة.

وإجمالا للأمر: نقف مع واحدة من تلك الفهوم الخاطئة، وهي غياب الوعي الصحيح لدى كثير من المسلمين في فهم تعاليم الإسلام المتعلقة بعلاقة المسلمين بغيرهم، في حين أن دعوة الإسلام لا توازيها ولا تساويها دعوة دينية في الحثّ على حُسْن معاملة غير المسلمين –المُسالِمين غير المُعادِين– وبرّهم، كما سبق بيانه في الحديث عن فرضية التعايش وأمر الله لعباده بالبر والإحسان إلى مخالفيهم ممن لا يحملون السلاح ولا يروّعون عباد الله.

ولقد حدثت حادثة في مجتمع المدينة، تبين طرفا من الفهم الخاطئ لطبيعة التعايش الإنساني مع المخالفين، مع تصحيح النبي –صلى الله عليه وسلّم– لهذا الفهم الخاطئ، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري –رحمه الله– من حديث عمرو بن مرة، قال: سمعت عبدالرحمن بن أبي ليلى، قال: كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي –صلى الله عليه وسلم– مرَّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها

جنازة يهودي، فقال: «**أليست نفسا**»[1] فهذا تصحيح لفهم خاطئ، اعتقده البعض، وظنّوا أنّه لا إحسان ولا بر من الناحية الإنسانية مع المخالفين، وأن الوقوع في ذلك يتعارض مع مبدأ التعايش السلميّ.

سبُل المواجهة النبوية والإفادة المعاصرة:

١. عدم التقوقع في بؤرة تفكيرية واحدة، بحيث لا يسمع المسلم إلا هي، ولا يُعطي نفسه فرصة للاستماع لرأي آخر مخالف لما يقتنع به.

٢. عدم إعطاء صبغة مقدّسة لمثل هذه الأفكار طالما أنها فردية وتصطدم مع مقتضيات الشرع، وأولويات الواقع.

٣. مراعاة فقه الواقع والأولويات في الأفهام والتحركات السلوكية في التواصل المجتمعي مع المخالفين دينيّا ومذهبيّا وطائفيّا.

٤. ترميز السلوك النبوي الشريف بين الشباب والفتيات؛ بحيث يرى الشباب رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- في سلوكه مع مخالفيه؛ فهم الذي دعا لهم، وطلب لهم الهداية، وأكل من طعامهم، وتزوج منهم، ورهن درعَه عند يهوديّ.

٥. تكثيف الدراسات العلمية المتخصصة في هذا الجانب، برد الشبهات حول قيمة التعايش السلمي، وتصحيح المفاهيم المغلوطة حول قيم التسامح والسلمية في التعامل مع المخالفين.

٦. اضطلاع الإعلام العالمي والإقليمي بدوره في تصحيح صورة وشكل المسلم، بدلا من هذا التشويه المتعمد لدى بعض وسائل الإعلام؛ حيث يساعد ذلك أصحاب الفهم المتشدد على الانخلاع من العزلة الاجتماعية، كما يسهم ذلك في بناء الحضارة بشراكة مجتمعية بين الجميع.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، حديث رقم (١٣١٢).

٧. نشر مبادئ السلام والمساواة بين جميع أبناء الوطن؛ بحيث لا يحدث تمييز فريق على آخر، وخاصة في بلاد الإسلام؛ حتى لا يتصور بعض المسلمين أنّ غيرهم مقدَّم عليه لدينه لا لكفاءته.

٨. إعلان جمعيات حقوق الإنسان وهيئات العالَم الرفض التام لتصرفات بعض الدول والأفراد في بلاد غربية ضـــد الأقليات المســـلمة، والعمل على رفع العدوان عن هؤلاء المستضـعفين، وإلا زادت شـراسـة الفكرة السـلبية والفهوم الخاطئة في نفوس المتحمّســين من أبناء الإســلام؛ لأنهم حينها ســيتذرّعون بذلك –وهو ليس مبررا على كل حال– ســيقولون: كيف نتعايش مع مخالفينا في بلادنا، مع أنّ إخوانهم في الدين يقتلون المسلمين في بلدانهم ويُضيّقون عليهم معايشهم؟!

٩. تبنّي مشـروع تربوي يسـبق المشـاريع العلمية في تنشـئة الأجيال الصـاعدة على أهمية قبول الآخر المخالِف وترسـيخ قيم المواطنة التي يدعو إليها الإسـلام، ومن الأهمية بمكان ربط كل هذه المفاهيم بالإســـلام وبنماذج أهل الإســـلام عبر العصور، من لدن سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلّم– إلى يوم الناس هذا.

ووفقاً لما سبق: فإنّ التحديات التي واجهت القائمين على تحقيق التعايش السلمي بين أبناء المجتمع كثيرة للغاية، وتتعدّد بتعدّد طرق أهل الباطل وكارهي الخير والســـلام، ويلزم معها البحث عن الحلول العملية، الداعمة لفكرة التعايش والتعارف والتســـامح والتكامل والتعاون بديلا عن نبرات وتوجهات التنازع والتناكر والتصارع والصدام.

ولقد كان من أكبر الأدلة على تفادي تلك التحديات ومواجهتها: عقد وثيقة المدينة ودستورها المدنيّ الراقي –كنموذج أمثل– لإقرار مبادئ التعايش السلمي دستوريًّا وقانونيًّا، وقد كان!!

وفي المبحث التالي وقفة تطبيقية مع نموذج من نماذج التعايش المنشود في المجتمعات، المتثمل في إقرار الوثائق الوطنية القائمة على إرساء دعائم التعايش، وستظل وثيقة المدينة المنورة عبر كل العصور صورة بيضاء ناصعة لجمال وكمال وعظمة الإسلام ومنهجه الشريف..

المبحث الرابع

وثيقة المدينة ودورها في تحقيق التعايش السلميّ

النقطة الأولى:

أهمية وثيقة المدينة

النقطة الثانية:

من بنود وثيقة المدينة المنورة

النقطة الثالثة:

تحليل مضمون الوثيقة

وأثرها في تحقيق التعايش السلميّ

المبحث الرابع:
وثيقة المدينة ودورها في تحقيق التعايش السلميّ

لقد اشتهرت في السيرة تلك الوثيقة الدستورية الراقية باسم (الصحيفة، الدستور، الوثيقة، المعاهدة، الموادعة...)، وقد قامت هذه الوثيقة على عدد من المواد الدستورية المؤكِّدة لقيمة التعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد، فكانت عبارة عن ميثاق وعقد اجتماعي عام، حدّدت المفاهيم، ووزعت الحقوق، وأكّدت التزامات الدولة والأفراد والعلاقات التبادلية بين الجميع.

أولا: أهمية وثيقة المدينة

إنها وثيقة ضامنة للحقوق الإنسانية، وثيقة دافعة للمعيشة الهانئة، وثيقة تعبر عن مدى الحكمة النبوية في إدارة الدول وبنائها وتحقيق عمرانها، "فلقد كان من حسن تدابير النبي –صلى الله عليه وسلّم– بعد هجرته أن يبدأ اليهود بالمودة، ويبسط لهم يد الأخوة، ويتفق معهم على مضامين أساسية تعصم المدينة من أن ينال منها عدو"[(١)] أو أن تمزّق بنيران الاختلاف وسِكِّين الفرقة والنزاع.

إنها وثيقة تمثل فصلا مهما من فصول بناء الدولة الإسلامية، كما أنها تبين أهم عناصر البناء الشامل للدول ومنهجية التعامل مع المشكلات الفكرية والاجتماعية والسياسية بين من اختلفوا وتعاركوا.

إنها وثيقة وضعت النقاط على الحروف، وأظهرت أن مخالفتها مخالفة لمبدأ التعايش السلمي، وإهدار للكرامة الإنسانية.

(١) السلام الاجتماعي والتعايش: بدوي طه، ص١٠٧، ط١/ ١٤٣١هـ، دار غريب– القاهرة.

كما أنَّها تمثِّل الدَّرجات العالية في تأمين المجتمع من الدَّاخل؛ فهي دُستور التشريعات المنظمة للعلاقات والأحوال الإنسانية المختلفة. كما أنها تؤكد على المشتركات الإنسانية البادية في علاقة المسلمين باليهود؛ فهم أهل كتاب سماويّ، وقد جاءت تلك الوثيقة لتضمن تحقيق التعايش، "فعقد معهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم معاهدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام"[(١)].

وحتى تظهر معالم التعايش من خلال وثيقة المدينة، ننقل طرفًا من بنودها وموادها -كما حكتها كتب السيرة-، ثم نقوم بتحليل مضمونها، بما يصل بنا إلى مؤكدات التعايش بما يحقق مقاصده السامية، ويتفادَى تحديات الواقع؛ رغبة في تحقيق آفاق المستقبل المنشود في التعايش بين المسلمين وغيرهم..

ثانيًا: من بنود وثيقة المدينة المنورة

تعدّ وثيقة المدينة بمثابة الدستور الحاكِم لأفراد المجتمع الجديد، و(في هذا الدستور -الذي قامت على أساسه دولة متحضّرة، في "الحاضرة" "يثرب" التي تحيط بها بيئة تغلب عليها "البداوة"... والذي كان ثمرة إسلامية للشريعة التي أخرجت العرب من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام-... يستطيع المتأمل أن يرصد الكثير من المبادئ والقواعد، التي مثّلت معالم على درب تطور وتقدم وتحضر وتحرر إنسان ذلك العصر،... بل والتي لا زالت تحمل الكثير من الخير لإنسان العصر الذي يعيش نعيش فيه!...)[(٢)].

(١) الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري (المُتَوَفَّى: ١٤٢٧هـ)، ص١٣٢، ط١/ ١٤٢٧هـ، دار العصماء- دمشق.

(٢) الإسلام وحقوق الإنسان "ضرورات لا حقوق": أ.د/ محمد عمارة، ص١٥٤، ط. سلسلة عالم المعرفة "سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت"، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.

ولقد تعدَّدت الروايات التي قصّت هذه المعاهدة علينا، وبدت كلها تتفق على أركان ومبادئ دستورية ثابتة، وجمعًا بين معظم هذه الروايات، سنحاول وضع تلك البنود في عناصر محددة[١]، نستكشف منها أهم المعالم والقيم التي أكّد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلّم..

ومن بين بنودها التي وصلت الأربعين ويزيد[٢] ما يأتي:

١. بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٢. (وبنو عوف، وبنو ساعدة، وبنو الحارث، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو الأوس)[٣] على رِبْعتِهم -أي: على حالتهم التي كانوا عليها قبل الإسلام- يتعاقَلُون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣. وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا -أيْ مُثقلا بالديون- بينهم، أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

٤. وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

---

(١) تعددت روايات الوثيقة في كتب السنة والسيرة النبوية من طرق مختلفة، بما يدحض أي شبهة تتنكر لها، أو تزعم أنها باطلة وغير صحيحة.

(٢) راجع: السيرة النبوية لابن هشام: ج١، ص٥٠١: ٥٠٤، (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)، والسيرة النبوية لابن كثير: ج٢، ص٣٢١: ٣٢٣، (مَرْجِعٌ سَابِقٌ)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله، ص٥٩: ٦٤، ط٥/ ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م، دار النفائس، بيروت.

(٣) يقول ابن كثير في سيرته: ثُمَّ ذَكَرَ كُلَّ بَطْنٍ مِنْ بُطُونِ الْأَنْصَارِ وَأَهْلَ كُلِّ دَارٍ: بَنِي سَاعِدَةَ، وَبَنِي جُشَمَ، وَبَنِي النَّجَّارِ، وَبَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَبَنِي النَّبِيتِ.

٥. وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[١] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

٦. وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

٧. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

٨. وإنّ سِلْمَ المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

٩. وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

١٠. وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

١١. وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٢. وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٣. وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

١٤. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أي: طلب دفعا على سبيل الظلم، فأضافه إليه، وهي إضافة بمعنى من. ويجوز أن يراد بالدسيعة العطية: أي ابتغى منهم أن يدفعوا إليه عطية على وجه ظلمهم: أي كونهم مظلومين أو أضافها إلى ظلمه لأنه سبب دفعهم لها. [النهاية في غريب الحديث والأثر: ج٢، ص١١٧ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

١٥. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

١٦. وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه، وأهل بيته.

١٧. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

١٨. (وليهود بني الحارث – وبني ساعدة – وبني جشم – وبني الأوس – وبني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف)، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

١٩. وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.

٢٠. وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٢١. وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٢٢. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٢٣. وإن النصر للمظلوم.

٢٤. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٢٥. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

٢٦. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

٢٧. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

٢٨. وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

---

(١) أي: لا يُهلك إلا نفسه.

٢٩. وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

هذه بعض بنود وثيقة المدينة المنورة، الصحيفة العادلة، الدستور المدني الأول...

وتلك هي روح الإسلام الرائدة تشعّ نورا وأملا لسكان الدولة الناشئة...

إنها عملية تنظيمية لطبيعة السكن والعيش المشترك...

كما أنّها قيم حاكمة جامعة، لا تتجاوز الأعراف الدينية والوطنية...

لقد أرست الوثيقة القواعد الرئيسية للتعامل الأمثل مع غير المسلمين...

إنها وثيقة يفخر بها المسلمون في كل زمان ومكان، ومن الشهادات الراقية عن تلك الوثيقة ما قاله أحد مفكري الغرب، المستشرق الروماني جيورجيو[(١)]، حيث يقول: "حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندًا، كلها من رأي رسول الله، خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُوّن هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحريّة، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء، وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أى عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدوّ عليهم أن يتّحدوا لمجابهته وطرده"[(٢)].

(١) وزير خارجية رومانيا سابقًا.

(٢) نظرة جديدة في سيرة رسول الله: تأليف كونستانس جورجيو، تعريب: د. محمد التونجي، ص١٩٢، ط١/ ١٩٨٣م، الدار العربية للموسوعات– بيروت.

ثالثًا: تحليل مضمون الوثيقة وأثرها في تحقيق التعايش السلميّ

بنظرة متفحصـــة لبنود وأركان ومواد هذا الدســـتور المدني الأول، وبإعادة قراءتها قراءة متأنية واعية، يُستخلص منها أهم القضايا والقيم الدستورية، الداعمة لثقافة التعايش الســـلمي، فلقد كانت وثيقة المدينة المنورة اعترافًا بحقوق المخالفين لأغلبية المجتمع في الحياة والحقوق المشـــتركة، فضـــلا عن القبول لهم والتعارف بينهم والتكامل معهم والاندماج بما يحقق مصلحة الوطن العامة والدفاع المشترك وتأمين الفرد والمجتمع.

ومن بين تلك القيم التي امتازت بها وثيقة المدينة وتســـهم بشـــكل كبير في دعم وإرساء قيمة التعايش السلمي، ما يأتي:

١. التأكيد على إنسـانية الجميع، وأنهم جميعًا أبناء وطن واحد وإشـاعة مفهوم المواطنة على حساب مفهوم القبيلة، وبالتالي لا مجال لنشر الفُرقة والشقاق، ولا مدعاة للتمييز بين الناس على حســـاب الدين؛ فالناس –في قانون المواطنة– ســـواء، ولا مجال لمصطلحات الأقلية وما شابه، ولذا كانت من أوائل البنود الدستورية في هذه الوثيقة (إنهم أمة واحدة من دون الناس) فهذا إقرار لمبدأ التعايش على أســـاس المواطنة بغضّ النظر عن الخلافات العقدية؛ فللمسلمين دينهم كما أنّ لليهود دينهم، وقد ظهر ذلك جليًّا في قوله الشـريف: (يهود بني عوف أمة مع المؤمنين) فإنّ المسـاس بدين المُخالِف لا يخدم بناء الدولة ولا استقرار المجتمعات.

٢. حفظ الملكيات الخاصـة ومراعاة الأحوال الشـخصـية الخاصـة بكل فريق من أبناء الوطن: فليس معنى التعايش أن نتنازل عن الحقوق المكفولة للأفراد في المجتمع، وقد ظهر ذلك في قوله المبارَك: (وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المســـلمين نفقتهم) وهذا يعني أيضًـــا أنه ليس لأي ســـلطة الحق في اغتصـــاب أموال مخالفيها ومعارضيها.

٣. الدفاع المشترك والتعاضد ضد أعداء الدولة في الداخل والخارج: فقوله الشريف: (اليهود يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) يؤكّد على قيمة الدفاع المشترك ضد أعداء الدولة –بحق المواطنة–، فمن خلال هذه الوثيقة "استطاع الرسول –صلّى الله عليه وسلم– أن يجعل أهل المدينة كلهم على اختلاف أديانهم وميولهم وأهوائهم يدا واحدة على أعدائهم... لقد استطاع الرسول –صلّى الله عليه وسلم– أن يوحّد صفوف سكانها على اختلاف ميولهم وأهوائهم ودياناتهم، ويجعلهم كتلة متّحدة للدفاع عنها ضد الغارات الخارجية، وكتلة واحدة للقضاء على الاختلافات الداخلية"[(١)] وقد أكّدها الرسول –صلى الله عليه وسلّم– بقوله أيضًا: (... وإن بينهم النَّصر على من دهم يثرب)..

٤. ضمانية فكاك الأسرى وإعانة الغارمين على سداد ديونهم: وفي هذا شأن عظيم يؤمّن المجتمع، ولا يجعل المثقلين بالديون عُرضة لاستغلال الأعداء، ولا تكن مأساة الناس الاقتصادية سببا في تضييع طاقاتهم أو تفريغها في الحرام، وتلك صورة عمليّة تدلّ على حكمة القائد وخبرته الإدارية في إدارة الأفراد كما إدارة الدولة.. وثمرة ذلك في منع الأسباب الداعمة للتشتت المجتمعي.

٥. التأكيد على المرجعية الدستورية لأبناء الوطن: فرسول الله –صلى الله عليه وسلّم– هو المرجع وهو الحاكم وهو القاضي، وهو "رئيس الدولة، وهو المرجع في التفسير والحكم والتنفيذ، وهو –صلى الله عليه وسلم– المسئول عن تحقيق أمن المدينة وسلامة المقيمين فيها، وهو –صلى الله عليه وسلم– المصدر الوحيد الذي يتلقى

(١) الرسول القائد: محمود شيت خطاب (المُتَوَفَّى: ١٤١٩هـ)، ص٧٤، ط٦/ ١٤٢٢هـ، دار الفكر– بيروت.

الوحي الإلهي، ويبلغه لهم وللناس أجمعين"[١] فإلى سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلّم– يعود الحُكم والفصل بين الناس عند الخلاف.

٦. مســـاهمة الوثيقة في حل المشـــكلات العالقة والواقعة بين أبناء المجتمع، كمســـائل الديات بين المتقاتلين (التعاقل)، والإسهام في الفدية للمأسورين، وإعانة المديون على الســـداد؛ ".... فلقد شـــكّلت فكرة إيجاد (أمة واحدة من دون الناس) المحور المركزيّ الذي دارت حوله مختلف الأحكام والمعالجات في الصحيفة"[٢].

٧. المســـاواة بين أبناء الوطن في إجارة غير أهل المدينة: وهذا أمر يعبر عن مدى ارتباط الرسـالة الإسـلامية بالحقوق الإنسـانية؛ فقد أعطت الوثيقة الحق لجميع الأفراد في إجارة غير سكان الدولة، ولعلها بادرة تشابه الحالة العصرية في حق منح اللجوء في العُرف السياسي المعاصر دوليًّا.

٨. منع إيواء المجرمين والخارجين على القانون الدسـتوري للدولة: يقول اللواء محمود شيت خطاب في كتابه "الرسول القائد" عن هذه الوثيقة:

"وفي هذه المعاهدة نظّم الرسول صلّى الله عليه وسلم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لسكان المدينة المنورة من المسلمين والمشركين ويهود... نظّم بها الحياة الاقتصـــادية، فالفقير يجد معاونة من الغني في معيشـــته وفك ديونه وتحمّل فدائه وديّته. ونظّم بها الحياة الاجتماعية، فالجار له حُرمة من جاره، وســـكان المدينة المنورة آمنون فيها من القتل والاغتيال والغدر، ولكل دينه الذي هو عليه، والمجرم

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: ص١٢٣ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

(٢) الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: د. هاشم يحيى الملاح، ص٢٠٣، ط١/ ٢٠٠٥م، دار ابن الأثير، العراق.

ينال عقابه على جرمه دون أن يحول دون تنفيذ العقاب عليه حائل، وليس هناك ما يفرّق بين الصفوف من دين أو أغراض أخرى"[١].

٩. التأكيد على حقوق الجيران مهما كان المعتقد: ففي بنود الوثيقة (وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم)، وفيها أيضًا: (وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصـــر عليهم) وهذا يدلّ على إذابة الفوارق المختلفة بين أبناء الوطن، ويدعو إلى اعتبار الجار كالنفس التي بين جنبي الإنســـان، يدفع عنه كل أذى، ويطلب له الخير، ويسانده عند الحاجة، ويرفع عنه الكرب، كما يفعل مع نفسه بالضبط، وتلك صورة من أهم صور التعايش السلمي.

١٠. حفظ الكليات والمقاصد الشرعية للمسلمين ولغيرهم: فقد أكّدت الوثيقة في أكثر من موضـــع منها على حرية الرأي والعقيدة، كما أكّدت على حرمة الدين والنفس والمال، وهو سبق لمجتمع الإسلام الأول، وهو أمرٌ يحفز الهمم للتعايش وإصلاح العلاقات بين المسـلمين وغيرهم، "فإن أســاس العلائق بين المسـلمين وغيرهم هو السِّـلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها.... والإســلام لا يؤذي غير المسـلمين في الوطن الإســلامي، ولا يضـطهد عقائدهم، ولا ينتقص من حقوقهم..."[٢].

ويظهر مما سبق أنّ دولة المدينة المنورة قد تميّزت بعدد من السمات، التي تدعو إلى الاستقرار والتعايش السلمي، مما يدعو إلى إعادة التجربة في ربوع أراضينا وبلداننا،

(١) الرسول القائد: ص٧٢، ٧٣ (مَرْجِعٌ سَابِقٌ).

(٢) السيرة النبوية "دروس وعبر" أ/ مصطفى السباعي، ص: ٧٦، ٧٧، ط٣/ ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي، بيروت.

فهي دولة إنسانية بطبيعتها، لها مرجعية واضحة، يعود إليها البشر حين التنازع، ترتكز في استقرارها وبنائها على مبادئ المشاركة المجتمعية، كما كفلت تلك الدولة لمواطنيها الحقوق الخاصة والعامة، وتحاكم أهلها إلى قانون المواطنة، وتحققت العدالة والمساواة بين جميع مواطنيها.

إنها حقا دولةٌ الحق والعدل، تستحق أن تكون نموذجًا للراغبين في الاستقرار، الطامحين إلى التعايش السلمي والبناء العمراني. نسأل الله تعالى أن يحفظ بلاد الإسلام والمسلمين، كما نسأله سبحانه أن يمُنّ على جميع البشر بالسعادة والهداية والهناءة، وأن يجمع صفوف البشر تحت لواء (تعالوْا إلى كلمةٍ سواء)، وراية (لتعارفُوا)، وشعار (ولقد كرَّمنا بني آدم)..

خاتمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله ومن والاه، وبعد:

فإنّ التعايش السلميّ بين أبناء المجتمع –الصغير والكبير–، ضرورة، وخيار لا بد منه؛ للحفاظ على مكتسبات الحاضر وصناعة المستقبل الباهر، إنَّه الضرورة الحتمية لتسوية العلاقات، إنه الوسيلة اللازمة لتأمين المجتمعات وتحقيق الأمان المشترك، إنه الحلّ الأمثل لحماية الأوطان وتعميرها.

وقد رست سفينة هذا البحث على شاطئ تلك الخاتمة، التي أسأل الله تعالى أن يُحسنها كما أرجوه أن يُحسن خاتمتنا من الدنيا، وقد مضت صفحات هذا البحث تقرّر فرضية مبدأ التعايش وضرورة تحقيقه بين الناس؛ ابتغاء بناء المجتمعات والحفاظ عليها من أعدائها، كما بيّن البحث أهم التحديات التي تقطع على التعايش طريقه، وكيف تعامل معها الرسول –صلى الله عليه وسلّم– في دولة المدينة المنورة، فضلا عن بيان أهم مبادئ وثيقة المدينة، التي أسّست لمبادئ التعايش السلمي... وقد توصّل البحث إلى عدد من النتائج والتوصيات، وبيان ذلك تفصيلا على النحو التالي:

أولا: أهم النتائج:

- التعايش السلمي هو الحل الأمثل لتجنب الصراعات باختلاف أنواعها.
- رسالة الإسلام ومنهجيته في التعايش لا تعني الذوبان؛ بل الاندماج المجتمعي.
- من أصول التعايش السلمي: الإيمان بالتعددية واحتفاظ الناس بحقوقهم.

- تعددت صـــور التعايش في دولة المدينة، كالتعايش الفكري، الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي، السياسي، ....
- حقيقة التعايش السلمي في إيجاد طرق سلمية للعلاقة بين الأفراد المختلفين.
- التعايش مقبول مع المُسَـــالِمين، أما المحتل المقاتل فلا تعايش معه؛ فقد قَتَلَ وبغى واستبدّ وتغطرس على الضعفاء والمستضعفين، ورسالة الإسلام تأبى الودّ والتعايش مع المجرمين المعتدين.
- التعايش قيمة إسلامية إنسانية أسسها القرآن ودعت إليها السنّة النبوية، وشجّعت على تحقيقها بين المســلمين والمســلمين، وبين المســلمين وغيرهم في الوطن الصغير والوطن الإنساني الكبير.
- التَّعايش الســلميّ هو البديل الأمثل للصـــراعات المجتمعية والدولية، ولا راحة للدول مع جيرانها إلا من خلال تحقيق التعايش، ولا أمان للأفراد في الوطن الواحد إلا من خلال التعايش.
- الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو المسالَمة والمُسامَحة، ولا تتغير هذه العلاقة السلمية إلا إذا طرأ ما ينقضها من اعتداء غير المسلمين على المسلمين في بلادهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.
- الخلاف في العقيدة بين المسلمين وغيرهم ليس مبرّرًا للقتال أو التكفير.
- ثبوت كرامة جميع المواطنين في الدولة بطريقة متســاوية؛ فالكرامة الإنســانية منحة ربانية، وليست عطية من أحد على أحد.
- سَـتبقى دولة المدينة المنورة هي دولة التعايش السـلمي الأولى في الدنيا؛ حيث انتظمت فيها علاقات الأفراد ببعضهم، وبالدولة ودستورها، وبالحاكم الذي وضع

وثيقة المدينة المنظّمة للعلاقات الإنسانية بين الجميع، وانتشرت المحبة الإنسانية –عامة– والإسلامية –خاصة–، لولا نقض اليهود للعهود والمواثيق.

- تفرّد الإسلام بمبدأ قبول الآخر تاريخيًّا وواقعيًّا، بخلاف ما جبُل عليه بعض الأطراف العالمية في رفض المسلمين، بل ومنعهم من إظهار شرائعهم وممارسة شعائرهم، كما حدث في بورما، الفلبين، البوسنة والهرسك، فلسطين...
- تعد وثيقة المدينة معلما من معالم فخر الحضارة الإسلامية، وقراءتها متأنية وسيلة من وسائل الخروج من الأزمات المتلاحقة اليوم بين الأفراد والمجتمعات والدول؛ فإن فيها طريقة مُثلى لتجاوز صدام الحاضر ونزاعات المستقبل.

ثانيًا: أهم التوصيات:

- تكثيف اللقاءات الإعلامية والندوات الحوارية بين علماء المسلمين وغير المسلمين؛ بحيث يرى الجيل الناشئ أنّ الحوار هو الطريق الأقوم للتعايش والتواصل، بديلا عن القطيعة والنزاع والتصارع، كما يمكن بث وقائع مؤتمرات التعايش السلمي على الهواء مباشرة إن أمكن.
- القيام على إصدار موسوعات علمية راقية في الرد على الشبهات المثارة حول الإسلام ورفضه للتقارب والتعايش مع غير المسلمين، وينبغي أن يضطلع الأزهر الشريف بدوره في هذا الباب، كما يلزم نقض الفتاوى الشاذة والآراء المتطرفة الداعية للعنف والداعمة للإرهاب سواء صدرت عن مسلمين أو عن غيرهم.
- إبراز الوجه الحضاري للإسلام في قبول الآخر تاريخيًّا والدفاع عنه، وذلك من خلال الدراسات العلمية المتخصصة، والقنوات الإعلامية الرائدة في المجتمع.

- الشـــروع في إعداد مقرر دراســـي لطلاب الثانوية والجامعات؛ يعلمهم أصـــول الحوار وآداب التعامل مع المخالفين.
- اضطلاع الأسرة والمدرسة ومؤسسات الإعلام والدعوة بدورها في تنشئة الجيل الصاعد على روح القبول والتعايش مع الآخر، وعدم صدور أي تصرف لا ينمّ عن صدق قبول المسلمين لغيرهم.

ثالثًا: أفكار بحثية للباحثين

ومن الأفكار البحثية التي يقترحها الباحث للباحثين، ما يأتي:

١. إسهامات الحضارة الإسلامية في تحقيق التعايش السلمي بين المخالفين.

٢. تحديات في طريق التعايش السلمي وسبل المواجهة.

٣. آثار التعايش السلمي على تفكيك الفكر المتطرف.

٤. أثر التعايش السلميّ في تحقيق الأمن المجتمعي.

٥. التعايش السلمي: شبهات وردود.

٦. دوْر المؤسسات الدينية في إرساء دعائم التعايش السلمي "الأزهر نموذجًا".

٧. تصحيح المفاهيم الخاطئة حول التعايش بين المسلمين وغيرهم.

٨. التعايش السلمي بين المُفرطين والمُفرِّطين.

٩. ثقافة التعايش في الإسلام: أسسها، ضوابطها، ثمراتها.

١٠. آيات أخطأ فهمها المتشددون "دراسة تفسيرية دعوية".

١١. منهج النبوة في إرساء دعائم التعايش السلمي وثمراته.

١٢. تطبيقات النبي –صلى الله عليه وسلّم– لمبدأ التعايش السلميّ.

١٣. تعايش المسلمين مع غيرهم والجوانب الحضارية في دولة المدينة المنورة.

١٤. دور التفاعل الثقافي في بناء السلام العالمي: دراسة تحليلية.

قائمة المراجع(١)

أولا: القرآن الكريم (كتاب الله المجيد).

ثانيًا: كتب السنة النبوية وشروحها

١. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه= صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ط١/ ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة- بيروت.

٢. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المُتَوَفَّى: ٢٧٥هـ)، ط١/ ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م، دار الرسالة- بيروت.

٣. سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المُتَوَفَّى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ط٢/ ١٣٩٥هـ= ١٩٧٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر.

٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط. دار المعرفة- بيروت: ١٣٧٩هـ.

٥. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المُتَوَفَّى: ١٠١٤هـ)، ط١/ ١٤٢٢هـ= ٢٠٠٢م، دار الفكر، بيروت- لبنان.

٦. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المُتَوَفَّى: ٢٦١هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي- بيروت (بدون).

(١) تم ترتيب المراجع أبجديًّا...

ثالثًا: كتب التفسير والقواعد الفقهية

٧. أنوار البروق في أنواء الفروق: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المُتَوَفَّى: ٦٨٤هـ)، ط. عالم الكتب- بيروت (بدون).

٨. أوضح التفاسير: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (المُتَوَفَّى: ١٤٠٢هـ)، ط٦/ ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م، المطبعة المصرية- مصر.

٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المُتَوَفَّى: ١٣٥٤هـ)، ج١١، ص٢٢١، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م.

١٠. تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المُتَوَفَّى: ٧٧٤هـ)، ط١/ ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية- بيروت.

١١. فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المُتَوَفَّى: ١٢٥٠هـ)، ط١/ ١٤١٤هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت.

١٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المُتَوَفَّى: ٥٣٨هـ)، ط٣/ ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي- بيروت.

رابعًا: كتب السيرة النبوية والدعوة والتاريخ

١٣. الدعوة الإسلامية في عهدها المدني "مناهجها وغاياتها": أ.د/ رؤوف شلبي، ط١/ ١٤٣٧هـ= ٢٠١٦م، دار الآثار، مصر.

١٤. الرحيق المختوم: صفي الرحمن المباركفوري (المُتَوَفَّى: ١٤٢٧هـ)، ط١/ ١٤٢٧هـ، دار العصماء- دمشق.

١٥. الرسول القائد: محمود شيت خطاب (المُتَوَفَّى: ١٤١٩هـ)، ط٦/ ١٤٢٢هـ، دار الفكر- بيروت.

١٦. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي (المُتَوَفَّى: ٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبدالسلام السلامي، ط١/ ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧. السيرة النبوية "دروس وعبر" أ/ مصطفى السباعي، ص: ٧٦، ٧٧، ط٣/ ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٨. السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المُتَوَفَّى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان: ١٣٩٥هـ= ١٩٧٦م.
١٩. السيرة النبوية لابن هشام: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المُتَوَفَّى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي، ط٢/ ١٣٧٥هـ= ١٩٥٥م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٢٠. السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: أ.د/ أحمد أحمد غلوش، ط١/ ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٤م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (المُتَوَفَّى: ٧٣٤هـ)، ط١/ ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م، دار القلم- بيروت.
٢٢. فصول من تاريخ المدينة: علي حافظ، ط٣/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م، طبعة محفوظة للمؤلف.
٢٣. فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالي، ط١/ ١٤٢٧هـ، دار القلم- دمشق.
٢٤. الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط١/ ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٥. المدينة المنورة في التاريخ: عبدالسلام هاشم حافظ، ط٣، ١٤٠٢هـ= ١٩٨٢م، طباعة نادي المدينة المنورة الأدبي، وتوزيع: الوكالة العامة للتوزيع- دمشق.

٢٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، ط٢/ ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م، جامعة بغداد – العراق.
٢٧. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم: أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي (بدون).
٢٨. نظرة جديدة في سيرة رسول الله: تأليف كونستانس جورجيو، تعريب: د. محمد التونجي، ط١/ ١٩٨٣م، الدار العربية للموسوعات– بيروت.
٢٩. الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: د. هاشم يحيى الملاح، ط١/ ٢٠٠٥م، دار ابن الأثير، العراق.

خامسًا: كتب اللغة والأدب وغريب الألفاظ

٣٠. أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المُتَوَفَّى: ٤٥٠هـ)، دار مكتبة الحياة: ١٩٨٦م، (بدون رقم الطبعة).
٣١. القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المُتَوَفَّى: ٨١٧هـ)، ط٨/ ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.
٣٢. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط. دار الدعوة– مصر (بدون تاريخ).
٣٣. معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المُتَوَفَّى: ٣٩٥هـ)، ط. دار الفكر– بيروت: ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.
٣٤. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ط. المكتبة العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ= ١٩٧٩م.

سادسًا: كتب الإدارة وإدارة الدولة

٣٥. الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في القرآن والسنة: محمد زكريا النداف، ط١/ ٢٠٠٦م، دار القلم– دمشق.

٣٦. الاقتصاد الإسلامي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: محسن خليل، ط. دار الكتب العربية، العراق: ١٩٨٨م.
٣٧. التراتيب الإدارية: محمد عبدالحي الكتاني، ط٢، دار الأرقم، بيروت– لبنان (بدون تاريخ).
٣٨. درة الغواص في أوهام الخواص لأبي محمد الحريري، تحقيق: عرفات مطرجي، ط١/ ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م، مؤسسة الكتب الثقافية.
٣٩. الدولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلّم: صالح أحمد العليّ، ط. المجمع العلمي العراقي: ١٩٨٨م.
٤٠. العلاقات الدولية في الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة، ط. دار الفكر العربي– مصر (بدون).
٤١. المجتمع المدني في عهد النبوة "خصائصه وتنظيماته الأولى": د. أكرم ضياء العمري، ط١/ ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م، المجلس العلمي "إحياء التراث الإسلامي" بالسعودية.
٤٢. مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها: الشيخ حسن خالد (مفتي لبنان سابقًا)، ط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان: ١٤٠٦هـ= ١٩٨٦م.
٤٣. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله، ط٥/ ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م، دار النفائس، بيروت.

سابعًا: كتب في التعايش والتواصل الإنساني

٤٤. الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين: د. عبدالعزيز التويجري، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) ط٢/ ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.
٤٥. الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب: شوقي أبو خليل، ط. دار الفكر المعاصر، بيروت: ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م.
٤٦. الإسلام وحقوق الإنسان "ضرورات لا حقوق": أ.د/ محمد عمارة، ط. سلسلة عالم

المعرفة "سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت": ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.

٤٧. الحوار من أجل التعايش: د. عبدالعزيز التويجري، ط١/ ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م، دار الشروق- مصر.

٤٨. السلام الاجتماعي والتعايش: بدوي طه، ط١/ ١٤٣١هـ، دار غريب- القاهرة.

ثامنًا: كتب عامة

٤٩. دراسات في علم السكان: د. فتحي محمد أبو عيانة، ط١/ ١٩٨٤م، دار النهضة العربية- بيروت.

٥٠. أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية: د. أحمد علي إسماعيل، ط٨/ ١٩٩٧م، دار الثقافة والنشر والتوزيع- القاهرة.

الفهرس

ملخص البحث ٧٢

Abstract: ٧٤

مُقدّمة البحث ٧٨

تمهيـد ٨٣

النقطة الأولى: ٨٣

تحديـــد المصطلحـــات ٨٣

..... ٨٧

النقطة الثانية: ٨٧

مجتمع المدينة المنورة عند الهجرة النبويّة ٨٧

المبحث الأول ٩٢

مرتكزاتُ التعايش السلميّ ٩٢

في القرآن والسنّة ٩٢

المبحث الثاني ١٠٥

مقاصد التعايش السلمي المنشودة ١٠٥

المقصد الأول: ١٠٦

إظهار الصورة الإيجابية عن الإسلام ١٠٦

المقصد الثاني: ١٠٨

تحقيق الوحدة وحصار العداوات الداخلية والخارجية ١٠٨

المقصد الثالث: ١١٠

تحقيق التنمية الشاملة والريادة الحضارية ١١٠

المقصد الرابع: ١١٢

إقامة العدل وتحقيق المساواة ١١٢

بين أبناء المجتمع الواحد ١١٢

المقصد الخامس: ١١٥

تحقيق الأمان العقدي والحرية الفكرية ١١٥
المقصد السادس: ١١٧
تحقيق الأمن المجتمعي لأفراد الدولة ١١٧
المقصد السابع: ١١٨
عمارة الأرض وبناء الأوطان ١١٨
المقصد الثامن: ١١٩
تنشيط مبدأ التكافل الاقتصادي والاجتماعي ١١٩
المبحث الثالث ١٢١
تحديات في طريق التعايش السلمي وسُبُل المواجهة ١٢١
التحدي الأول: ١٢٣
الحَسد والغيرة في قلوب أعداء الإسلام ١٢٣
التحدي الثاني: ١٢٥
الزَّعامات المُنافِسَة للقيادة الرشيدة والدولة الناشئة ١٢٥
التحدي الثالث: ١٢٨
العصبية المقيتة ١٢٨
التحدي الرابع: ١٣٠
الشائعات والأراجيف المدمرة ١٣٠
التحدي الخامس: ١٣٣
نقض العهود والمواثيق الدستورية وتعدد الخيانات ١٣٣
التحدّي السادس: ١٣٥
الفهم الخاطئ لمبدأ التعايش السلميّ ١٣٥
المبحث الرابع ١٤٠
وثيقة المدينة ودورها في تحقيق التعايش السلميّ ١٤٠
خاتمة البحث ١٥٢
قائمـة المراجــع ١٥٦

تم بحمد الله وتوفيقه...